# حـــب
# لا يموت

الناشر

النخبة للطباعة والنشر والتوزيع

www.darelnokhba.com

رئيس مجلس الإدارة

**أسامة إبراهيم**

المدير التنفيذي

**سماح الجمال**

المدير الفني

**أحمد جابر**

تصميم الغلاف

**مصطفى الدناصورى**

التصميم الداخلى

**وليد محمد**

**دار النخبة**

**للطباعة والنشر والتوزيع**

٣٣ شارع السنترال - المجاورة الأولى
- الحي الأول- مدينة الشيخ زايد -
الجيزة - مصر

تليفون: ٣٨٥١١٩٦٩ - ٠٠٢٠٢
٠٠٢ - ٠١٢٨٨٦٨٨٨٧٥
E-mail: alnokhoba@gmail.com

الطبعة الأولى
1438 هـ - 2017 م
جميع الحقوق محفوظة للناشر

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية:
2017 - 1545
ISBN: 978 - 977 - 6580 - 34 - 3

عماد عبدالرازق علي قنديل

رواية

# حب لا يموت

٢٠١٧

# الإهداء

«حُب لا يموت»... أول رواياتي التي ترى النور بين أيديكم لا يسعني وصف سعادتي بها، وأتوجه بالشكر والتقدير لكل من ساهم في إخراج هذا العمل الذي أتمنى أن يلقى قبولكم بإذن الله تعالى. وأخص بالشكر كلًا من:

- أسماء المتولي زوجتي الحبيبة، شكرًا لكِ على كل شيء قدمتيه لي كي أصل إلى إنجاز هذه الرواية.
- الأستاذة أماني البحيري الصحفية والكاتبة، جزيل الشكر على تشجيعك منذ اللحظة التي عرضتها عليكِ ودعمك لي.
- الأستاذ أسامةَ إبراهيم رئيس دار النخبة، وكل فريق العمل الذي أتشرف أن تكون أسمائهم بالصفحة الأولى من روايتي.

م. عماد عبدالرازق علي قنديل

# (حروب بلا نهاية)

تبدأ تلك القصة برجل فقير يعيش فى قرية صغيرة؛ وكان يعمل بالأجر ليقتات هو وزوجته وأبناؤه، فلقد رزقهم الله بولدين صالحين دفع بهما إلى التعليم حتى يتخلص من ذل العمل عند أغنياء القرية، وكان قد تخير لولديه اسمين جميلين فسمى ابنه الأكبر إبراهيم والأصغر سالم، وكان حب الرجل للحياة يزداد بنجاح ولديه.

ومرت عليهم الأيام فى سعادة وسرور حتى تخرج الابن الأكبر من كلية الآداب وكان الابن الأصغر ما زال يدرس فى كلية الهندسة بالفرقة الثانية، ولكن الحياة لا تبقى على وتيرة واحدة فهى دائمًا فى تغير مستمر، فلقد ماتت الأم وكان الابن الأكبر فى الجيش ولا بد لهم من امرأة تقوم بخدمتهم وترعى شؤونهم؛ ففكر الأب فى أن يزوج ابنه الأكبر، فتخير له ابنة أخيه الوحيدة والتى تعيش مع أمها بعد وفاة والدها..

وعادت الأيام تبتسم من جديد وأخذت ورود الحياة تتفتح لهم، وأنهى إبراهيم الجيش والتحق بوظيفة فى مكتب القوى العاملة..

ومضت السنون وقد أنهى سالم دراسته والتحق بالجيش، وفى يوم ١٩٧٢/٩/٢٢م رُزِق ابراهيم بولده الأول وكان فى قمة السعادة بهذا المولود..

ومرت الأيام سريعًا، وعاد شهر سبتمبر من جديد فقرر أن يقوم بعمل عيد ميلاد لابنه، ولكن القدر أبى؛ فلقد تسلم خطاب استدعاء إلى القوات المسلحة فى يوم ١٩٧٣/٩/٣م، وكان سالم ما زال فى الجيش فسافر إبراهيم دون أن يرى أخاه.. وما إن مرت الأيام حتى نشبت الحرب.. وذهب إبراهيم إلى الحرب دون أن يودع أخاه سالم، والذى أصبح معه فى ميدان واحد إلا أنه لا يعرف له مكانًا وابنه الوحيد الذى تخير له أحب الأسماء إليه وهو محمد.

ولقد شارك فى هذه الحرب ٣٦ شابًّا من هذه القرية، فكانت هذه القرية يملأها القلق والخوف على أبنائهم، فمنهم من سافر قبل زواجه وعرسه بأيام قلائل؛ حيث كانت الحرب فى شهر رمضان..

وغالبًا ما تكون أفراح أهالى الريف فى الأعياد، ومنهم من سافر وترك أباه مريضًا.. واشتعلت الحرب وزادت ويلاتها وزاد قلق الناس وخوفهم عندما جاء ثلاثة شباب قتلى من شباب القرية، فزاد بكاء الأب على ولديه اللذين لا يدرى عنهما شيئًا..

ومرت الأيام ووضعت الحرب أوزارها وجاءت جثث القتلى إلى القرية وكان من بينهم الابن سالم، ولم يصدق الأب نفسه؛ فاحتضن جثة ابنه ولم ينطق بكلمة واحدة ولم يحرك يدًا ولا رجلًا بل مات فى حضن ولده..

يا لها من مأساة تشهدها تلك القرية، فابتسامات النصر كانت ملطخةً بدماء أبنائهم.. ودُفِن الشهداء ودُفِن معهم هذا الرجل العجوز الذى قتله العدو دون سلاح.

وكان إبراهيم قد أُصِيب فى المعركة برصاصات في العمود الفقرى أفقدته القدرة على الحركة، وتم نقله إلى المستشفى وأُجْرِيت له عملية جراحية، ولكن لا أمل أن تعود له قدرته على الحركة..

ومرت أيام طويلة على غيابه لم تعلم فيها الزوجة أى أخبار عنه، فهى فى عذاب لا ينتهى بين غياب زوجها الذى لا تعلم أى شيء عنه، والذى تتمنى أن تراه حتى وإن كان شهيدًا حتى يستريح قلبها وتقر عينها، وليس لها من الأمر شيء سوى البكاء ليلًا ونهارًا، ولكن ها هو الزوج قد عاد بعد شهرين من انتهاء الحرب..

عاد ليرى الحزن مخيمًا على أهل القرية التى فقدت عشرين شابًّا من خيرة شبابها من بينهم أخوه الأصغر والوحيد، والذى لم يره من قبل الحرب بأيام كثيرة وأبوه الذى قتله الحزن..

عاد ليجد زوجته تعيش بمفردها مع ابنه الصغير، فارتمى فى أحضانهم وانهارت أعصابه وانهمرت دموعه على خده حزنًا على ما أصاب أسرته فلقد فقد كل شيء.. فقد أخاه وأباه كما فقد قدرته على الحركة.. لقد أصبح جثةً هامدةً.. لقد تمنى الموت قبل أن يرى نفسه وحيدًا فى بحر الأحزان الذى لن تجف مياهه أبدًا، وما زاد ألمه وحزنه هو أنه لم يدفنهم بيده.

ومرت الأيام والشهور وهو جالس مع نفسه لا يريد أن يقابل أحدًا

أو يتحدث إلى أحد، وقامت الحكومة بصرف راتبه كاملًا مع إعطائه الحق فى الحوافز والترقيات. ومرت الأيام سريعًا وأخذ الجرح يندمل، ولكن هيهات أن تنسدل ستائر النسيان على أبيه وأخيه الذين ضيعتهما الحرب، كما كان يتمنى لو أنه كان معهم شهيدًا.

وأصبحت زوجته حاملًا فى طفلها الثانى ولكن الحزن والبكاء قد أصابها بالضعف والمرض فماتت وهى تلد.. ماتت بعد أنجبت طفلةً صغيرةً.. ماتت وتركتها لأب عاجز وطفل صغير؛ فزاد حزن الأب، وتجددت الآلام من جديد بعد أن ماتت زوجته وتركت له طفلين لا يعرف كيف يتصرف معهما، ولكن جيرانه أشفقوا عليه فأخذوا منه أولاده..

ولكن هل سيبقى الحال على ذلك؟ هل كُتِب عليه أن يبقى وحيدًا حزينًا طول الحياة؟ وهل كُتِب على أبنائه أن يعيشوا وأن يُحْرَموا من حنان الأم وقرب الأب منهم؟

وطلب منه جيرانه أن يتخير اسمًا لابنته، فلم يتردد لحظةً فى أن يسميها أنين، تلك الكلمة التى ترافق حياته، وأُجْبِر على أن يعيش معها طوال الحياة، وبالفعل سجلها فى شهادة ميلاد ابنته لتكون شهادةً رسميةً من الحكومة تقر فيها أن هذا اليأس مع الأنين، ومضت سنه وهو يعيش فى عذاب، فهو غاضب من نفسه.. ناقم عليها..

فهو يحمل جيرانه فوق طاقتهم بخدمته ورعاية أبنائه. وأشار عليه أحد أصدقائه فى أن يتزوج، لكنه قابل هذه الفكرة بالرفض المباشر، فهو لا يتصور أن يتزوج بامرأة أخرى بعد زوجته..

ثم عاد ليخضع لتلك الفكرة، ولم يكن الخضوع حبًّا فى النساء أو حبًّا فى الزواج، ولكن ليشترى راحة أولاده الصغار.. فهو لم ولن ينسى أبدًا زوجته المخلصة والتى أصبحت يومًا ما هى كل أهله، وكذلك هو بالنسبة لها.. ولكن بهذا حكم القدر ثم يعود إلى نفسه متسائلًا:

من هى التى تقبل الزواج من رجل سبق له الزواج ويعول طفلين؟ ليس هذا فحسب؛ بل بالإضافة إلى كل ذلك فهو رجل عاجز.. فمن تلك المرأة الملاك التى ترضى بهذا كله؟ فإن قبلت زواجه السابق وأولاده فلن تقبل عجزه، ولكن أهل القرية وقفوا إلى جواره حتى وجد امرأةً تزوجت مرتين ولكن طُلِّقت لعدم قدرتها على الإنجاب.. فكانت فرحته لا تُقَدر بهذه الزيجة، فهى لن تنجب له أطفالًا وبذلك يضمن عدم كراهيتها لأبنائه..

وتزوجها.. ومضت عليهم الأيام، ولكن الزوجة شعرت بالغيرة من حبه الزائد لأبنائه ووفائه الذى لا حدود له لزوجته السابقة أم أولاده، فأقسمت أن تحمل على عاتقها قتل هذا الوفاء فى قلبه وتحويل هذا البيت إلى جحيم يصطلى فيه الأبناء بنار الحقد والكراهية..

فأخذت تعامل الأولاد بغلظة وبشدة.. وكان الولد فى الشهادة الابتدائية وكان إعجاب أبيه به لا يُقَدر لأنه متفوق.. وكيف لا يكون متفوقًا وأبوه يكرس كل جهده له ليذاكر له كل دروسه، وأنهى الشهادة الابتدائية بمجموع (٢٧٤) وأصبح الأب شديد السعادة بابنه الذى يرى فيه كل أمله فى الحياة، ودخل الابن المرحلة الإعدادية..

ولكن الأوضاع لم تكن كما كانت من ذى قبل، فلقد طلبت الزوجة

من الابن أن يعمل بجوار الدراسة، وأخبرته أن ذلك من أجل أبيه.. فلقد زادت أعباءه وراتبه لا يكفيه.. ويجب عليه أن يعمل، وأن يظل عمله سرًّا بينهما، ولا يعلم أباه حتى لا يتعذب لعجزه وعدم قدرته على الإنفاق على بيته.. فوافق الابن على ذلك وكان يتقاضى فى اليوم جنيهًا ونصفًا..

كان كلما سأله أبوه عن سر غيابه اليومى يخبره بأنه يذهب ليذاكر مع زملائه، وتحمل الابن كل ذلك ظنًّا منه أنه يفعل ذلك من أجل أبيه العاجز.. ومرت الأيام والسنين ووصل الابن إلى نهاية الشهادة الإعدادية، ولكن بنفس مستواه السابق..

وانتهت الامتحانات وظهرت النتيجة وأخفق فيها الابن.. فلم يحصل إلا على مجموع (١٦٥) درجة، وهو مجموع لا يؤهله إلى الالتحاق بالثانوية العامة. فحزن أبوه بعد أن خاب أمله فى ابنه والذى كان يأمل فى أن يكون طبيبًا أو مهندسًا..

وما كان من زوجة الأب بعد أن نالت ما كانت تحلم به إلا أنها قالت لأبيه: «لقد كنت أنت السبب فى فشل ابنك»..

فقال لها: «أنا.. إزاي؟»

قالت: «لقد دلعته أكثر من اللازم وكانت تلك هى النتيجة.. وأنا لو مكانك كنت أريح نفسى من المصاريف وأعلمه صنعةً يكسب منها أكل العيش.. وكفاية أنه تعلم من المدرسة كيف يقرأ ويكتب»..

فلم ير الأب إلا أن يسلم الأمر إلى زوجته تفعل ما تشاء وتتصرف كيفما تريد.. وراح يبكى على ابنه الذى كان يأمل فيه الأمل الكبير..

وكان الابن يسمع الحوار الذى دار بينهما.. فأخذ يبكى من موقف زوجة أبيه.. وأراد أن يخبر أباه عن سبب إخفاقه فى الامتحانات ولكن أباه لا يريد أن يراه، أو يسمع صوته حتى لو سمح له أبوه بحديث، فمن الذى يؤيد كلامه.. أخته المغلوب على أمرها؟ أم زوجة الأب التى كشفت عن ضميرها الحقير وحبها الكاذب؟ فقرر أن يتحمل ويصمت حتى يأتى الله بالفرج..

# (صراع مع القدر)

ومرت الأيام وجاء موعد سحب الاستمارات من المدرسة فقرر أن يأخذها ويهرب.. ولكن إلى أين؟ لا يدري.. وكل ما يدفعه إلى الهرب خوفه على مستقبله الذى أصبح فى يدى زوجة أبيه.. ولكن يمنعه من فعل ذلك حبه لأبيه وأخته الوحيدة..

وشجعته النقود التى معه على الهرب.. فانطلق إلى محطة القطار لأول مرة فى حياته وهو لا يدرى إلى أين يذهب.. فوجد فيها قطارًا يتحرك فقفز فيه.. وأخذ القطار يتحرك وهو يبكى لأنه لا يعلم أين يذهب فهو يجهل مصيره، ولكن مهما كان هذا المصير المجهول فهو لا يريد العودة إلى ظلم زوجة الأب..

ولكن سرعة القطار تجعله يشعر بالأمن من عذاب زوجة أبيه، ثم يعود فيبكى بحرقة على أبيه العاجز وأخته الوحيدة التى سوف لا تتحمل عذاب فراقه، فهما لم يفترقا أبدًا..

فهو لا يدرى إن كان سيراهم مرةً أخرى أم شاء القدر لأن يكتب عليهم الفراق عليهم طول الحياة، وفى وسط تلك الأحزان والدموع

الساخنة يأتى الكمسرى ليسأل عن التذكرة.. فهو ليس معه تذكرة لأنه لا يعرف شيئًا عنها.. فتلك أول مرة يخرج فيها من القرية.. فأجابه: «ليس معى تذكرة».

فسأله: «إلى أين أنت ذاهب»..

فصمت قليلًا، ثم قال له: «لست أدري».

فتعجب الكمسرى قائلًا: «فى حد ما يعرفش هو رايح فين!»

أجاب: «هو القطار آخره فين؟»

فقال الكمسري: «آخره الزقازيق».

فطلب من الكمسرى تذكرةً إلى الزقازيق.. فأعطاه الكمسرى التذكرة وتركه وانصرف، ولكن ذهنه ما زال مشغولًا بهذا الصبي.. فقال لنفسه: «لابد وأن وراءه حكاية».

وبعد أن وصل القطار إلى مدينة الزقازيق.. نزل الصبى ومضى يمشى حتى وصل إلى شارع البحر وأخذ يبكي.. وكان الكمسرى يتتبعه.. فلما وجده حائرًا اقترب منه برفق ثم سأله: «أنت تايه يا بني؟»

فإذا به يزداد فى البكاء وتزداد حيرة هذا الرجل الطيب ودهشته ثم يسأله مرةً أخرى: «هل جئت لزيارة أحد من أقاربك ولم تستطع الوصول إلى العنوان»..

فلم يجب، فسأله: «من أى البلاد أنت؟ وما هذا الورق الذى فى يديك؟»

ثم مد يده وأخذ منه الورق.. فعرف اسمه ومحافظته، ثم قال له:

«– إلى أين تذهب بهذه الاستمارات؟»

فأجاب الصبى بصوت مخنوق والدموع فى عينه: «مش عارف»..

فإذا بالرجل الطيب يحدثه بصوت هادئ وبرفق بعد أن رق لحاله وطلب منه أن يذهب معه إلى بيته ويبقى معه حتى الصباح.. ولم تكن أمامه طريقة أخرى سوى الذهاب معه.. ولم يثقل عليه الرجل فى الحديث فلم يسأله سوى عن اسمه؟ فقال له:

«أنا اسمى كامل أحمد الشاذلي.. أعمل كما ترى كمسرى فى السكة الحديد، ولى زوجة طيبة اسمها الحاجة زينب، وابنة وحيدة وهى فى مثل سنك اسمها عزة.. دى يا سيدى كل حاجة عني، ولا أريد أن أعلم عنك شيئًا إلا إذا شئت أنت»..

وفى أثناء ذلك وصلوا إلى البيت.. فإذا بسيدة وكأنها ملاك ينبعث من وجهها نور الطيبة.. فإذا بها تبتسم ثم تسال: «مين ده يا حاج كامل؟»

فقال لها: «ضيف يا حاجة».

فقالت: «يا ألف مرحبًا بالضيف».

فقال الرجل: «دى يا سيدى تبقى الحاجة زينب».

ثم خرجت فتاة جميلة من حجرة باندفاع وهى تقول: «الساعة ١٢,١٠ يا سى بابا»..

فنظرت إليه فى خجل وهى تقول: «أنا آسفة.. لم أكن أعلم أن أحدًا مع بابا».

ثم قالت: «خلاص يا سيدى سماح هذه المرة»..

ثم أسرعت إليه تحتضنه وتقبله، وهو يبتسم فرأى الصبى كل ذلك.

فتذكر أباه وطيبته وتذكر حنان أخته.. فسالت الدموع من عينيه.. فعلم الحاج كامل أن هذا الصبى لا بد وأنه يعيش مأساةً لا مثيل لها.. ولكن ما هي؟! لا يعلم.. فنظر إليه ثم قال: «مفيش مشكلة بدون حل، فهون على نفسك واسترح.. ثم احكِ لى ماذا وراءك»..

ثم دخلت الحاجة زينب وقطعت الحديث بينهم بقولها: «العشاء جاهز يا حاج».

فجلسوا على المائدة، وأخذت عزة تتحاور مع أبيها عن المدرسة التى ترغب فى الالتحاق بها، وكان مجموعها ١٥٢ درجة فقط، فاختارت مدرسة الزراعة للالتحاق بها.. فسألها أبوها: «ولماذا هذه المدرسة بالذات؟»

فقالت: «حتى أذاكر وألتحق بكلية التربية»..

فقال أبوها: «وهذا أقصى ما أتمناه».

فأخذت تلك الكلمات طريقها إلى عقل الصبي.. وأخذ يفكر فيها بجدية.. وما إن قرر أن يفعل مثلها إلا ونطق قائلًا: «أنا أريد أن أتحدث معكم فى أمر».. ومضى يقص عليهم قصته من بدايتها..

وعندما انتهى منها كانت الدموع تملأ وجه عزة.. وإذا بالحاج كامل يقف مسرعًا، ثم قال: «يبقى لازم ترجع لأبيك فى الصباح، فهو يحتاجك إلى جواره وكذلك أختك الوحيدة. لن تستطيع العيش وحدها مع تلك المرأة.. فما كان من الصبى إلا أنه قال: «معلش يا

حاج.. أنا أريد أن أجد عملًا وسوف أدخل مدرسة الزراعة، وسوف أكون مجتهدًا، وسأعود إلى أبى عندما أكون مؤهلًا لدخول الكلية.. وأشعر أنى حققت له ما كان يتمنى»..

فقال الحاج كامل: «حتى لو وافقتك على ذلك، فلا بد أن يعرف أبوك مكانك.. فصدقنى يا بني؛ الأب يمكن أن يتحمل أى حاجة فى الدنيا، ولكن لا يتحمل لحظة فراق أحد أبنائه.. وخاصةً أن أباك كما قلت لى عاجز.. أى أنه فى حاجة إلى خدمتك وكذلك أختك فى حاجة إلى رعايتك»..

ولكن هذا الكلام كله لا يعنيه فهو قد قرر طريق العودة إلى أبيه وأخته.. فقال: «أستحلفك بالله يا حاج أن يظل هذا سرًّا بينى وبينكم، وأن تبحث لى عن عمل وأن تساعدنى فى تقديم أوراقى إلى المدرسة مع ابنتك. ولن أنسى هذا المعروف طيلة عمري».. فوافق الحاج كامل على طلبه عندما وجد الدموع تكسو كلامه وكذلك عندما طلبت عزة منه القبول.

وأخذه إلى حجرة كى يستريح.. ثم تركه وذهب إلى حجرته ولكن النوم لم يعرف طريقه إلى عينه، ولم يغمض له جفن فهو يفكر ماذا يفعل وما النتيجة لو بقى الصبى عنده دون أن يخبر أباه؟ وما مصيره لو أعاده إلى زوجة أبيه؟

فظل يفكر حتى مطلع الفجر، فاستيقظت الحاجة زينب لتجده ما زال مستيقظًا فقالت له: «هون عليك».. فقال: «كيف؟ وأنا أخشى أن أظلم الصبى أو أظلم أباه».

فقالت له: «اسمع يا حاج.. فيها إيه لو تفتح المحل الموجود أسفل البيت بقالة وشغل فيه الصبي.. وكمان تنزل له كنبة لينام عليها وتقوم بتقديم أوراقه مع عزة ويبقى يذاكر فى المحل»..

فصمت الحاج قليلًا ثم أخذته الشفقة على مصير هذا الصبي.. فوافق على هذا الحل.. ثم خرج يتوضأ ليصلى الفجر فسمعه الصبى الذى لم يرى النوم فى ليلته تلك.. فهو يفكر ماذا سيحدث؟ وهل موافقة الحاج نهائية أم أنه سوف يراود نفسه ويغير رأيه.. ثم أراد أن يخرج لكى يصلى الفجر فهو قد اعتاد على اصطحاب أبيه إلى المسجد فى كل وقت ولكن.. كيف يخرج وأهل البيت نيام، فهو حائر.

ولم تبق حيرته طويلًا فقد سمع الحاجة وهى تنادى على ابنتها لكى تقوم لصلاة الفجر فتعجب الصبى من تلك الأسرة الطيبة.. ثم نادى من الداخل: «لو سمحتم.. أريد أن أصلي».. فنادى عليه الحاج، ثم قال له:

«ادخل فتوضأ لكى نذهب سويًّا إلى المسجد».. وبالفعل ذهب الاثنان إلى المسجد وبعد انقضاء صلاة الفجر جلس فى الجامع بعض الشيوخ لكى يقرؤوا الورد اليومى من القرآن.. فجلس الصبى معهم وعندما أصابه الدور فى القراءة أخذ يرتل بصوت رائع.. فتعجب الجميع منه.. وما إن انتهى من قراءته حتى سأله أحدهم: «أنت ابن مين؟» فأجاب الحاج كامل: «إنه ضيفي».

فسأله الشيخ: «كم تحفظ من كتاب الله؟» أجاب الصبي: «أتم على الله حفظه كاملًا» فزاد إعجابهم به.

وقرر الحاج كامل ألا يفرط فى هذا الصبى المبارك بإذن اللّه.
ثم أخذ الشيخ يمتحنه فى القرآن أمام الشيوخ فلم يخطئ، وكان يتلو القرآن فى خشوع وثبات، ثم انتهت الجلسة وهم جميعًا سعداء من فرط إعجابهم بهذا الصبى الذى يعتبرونه معجزةً.

ثم اصطحبه الحاج كامل إلى البيت وسأله: «من الذى ساعدك على حفظ القرآن؟» أجاب الصبي:

«الفضل للّه أولًا، ثم لأبى ثانيًا».. قال الحاج كامل: «جازى اللّه أباك عنك خيرًا»..

# (عودة الروح)

وما إن وصل الرجل إلى بيته أسرع يحدث زوجته عما رآه من أمر هذا الصبي، وهى تستمع فى دهشة وعجب ثم راح الحاج كامل يحدثه بما قرره من حل، فابتسم الصبى وشعر أنه سيكون فى مأمن من مكر زوجة أبيه.. ولكن ما يعذبه هو بعده عن أبيه وأخته..

ثم قال له الحاج عندما وجد فى عينيه دمعه يعلم أن سببها بعده عن أبيه وأخته: «اسمع يا بني.. لقد وافقتك على طلبك فى أن يظل أمرك سرًّا.. وإلا أخبرت أبيك عن مكانك.. ولكنى أعاهدك أن أعيدك إلى أهلك فى أى وقت تحبه»..

فقال الصبي: «لست أدرى كيف أشكرك يا حاج؟» فقال الحاج: «الشكر لله يا ولدي، ودعنا الآن نتناول إفطارنا وننصرف إلى العمل لأن يومنا مليء بالعمل».

وبالفعل لم ينته اليوم حتى أصبح المحل مليئًا بالبضائع كما أصبح به مكان جيد لنوم الصبي.. ولم يغضب من ذلك فهو يعلم أن هذا

أدنى حقوق أهل البيت عليه.. وكانت عزة أكثرهم سعادةً به.. فبعد أن عاشت عمرها وحيدةً بدون أخ أو أخت.. أرسل الله إليها فتًى صالحًا ليكون لها رفيقًا فى البيت.. ليس هذا فحسب بل سوف يشاركها فى تحقيق حلمها وهو دخول الكلية..

وبالفعل مرت الأيام والتحق محمد بنفس مدرسة عزة ولكنه كان مقيدًا ضمن طلبة المنازل نظرًا لظروف عمله.. ومضت الأيام وهو فى سعادة ولا ينقصه شيء سوى أن يرى أباه وأخته..

وها هى الأيام تمضى دون توقف حتى يجد نفسه أمام امتحانات السنة الأولى، وفى ذلك الوقت قرر الحاج كامل أن يتولى هو بنفسه العمل لمحل التجارة كى يتفرغ محمد لمذاكرته فقط..

لم يدخر الفتى وقتًا ولا جهدًا فى المذاكرة مع رفيقة عمره ابنة الحاج كامل حتى انتهت الامتحانات على خير. وجاءت الأجازة الصيفية وكانت عزة كثيرًا ما تقف معه فى المحل وتطلب منه الحديث عن أبيه وأخته حيث أنه كان يجد كل السعادة فى ذكراهم والتحدث عنهم..

حتى جاء اليوم الموعود وهو يوم ظهور النتيجة التى ذهبت عزة لتراها وظل الصبى فى قلق يترقب ذلك الخبر حيث مرت عليه الساعات وكأنها سنوات طويلة تملكه فيها الخوف تارةً والثقة تارةً أخرى فى أن الله لن يضيع تعبه وحرمانه من أهله هباءً.. وفى وسط هذه اللحظات المتغيرة تظهر عزة وعلى وجهها حزن تكسوه الدموع.

ووقف الصبى حائرًا لا يدرى ماذا حدث ولا ماذا يقول؟ فقد كانت كل الامتحانات سهلةً وجيدةً ولكن ما الأمر؟ وهو لا يدرى شيئًا، ولا يعلم سببًا لذلك الحزن وتلك الدموع..

فترك المحل وصعد خلفها.. فإذا بالباب مفتوح وهى تحدث أمها فسألتها ماذا حدث؟ فقالت: «لا شيء».

قالت الأم: «فما سبب تلك الدموع؟».

فقالت الابنة: «لقد نجحت يا أمى وأنا الأولى على المدرسة».

طارت الأم فرحًا ثم قالت: «وما الذى يبكيك إذًا؟ هل أصاب محمد مكروه أم أنه رسب فى بعض المواد»..

قالت: «لا؛ بل نجح هو الآخر.. ولكن ترتيبه هو الخامس على المدرسة.. ولكم كنت أتمنى أن يكون هو الأول وليس الخامس.. ولكن ليس بيدى شيء لأفعله كى أدخل البهجة على قلب هذا الصبي، والذى عاش عمره من حزن إلى حزن وألم إلى ألم»..

وإذا بها تلتفت لتجده أمامها واقفًا أمام باب شقتهم ليرى ويسمع كل ما حدث.. والذى ما إن سمعه لم يتمالك أعصابه ولم يستطع أن يمنع نهر الدموع الذى فاض من عينيه، ولم يجد كلمات يعبر بها عما يشعر به من داخله..

إلا أنه قال: «بل فعلت كل شيء، فلم أكن أتصور أن هناك من يكن لى كل هذا الحب غير أبى وأختي، ولم أكن أعلم أن هناك أناسًا يملكون مثل هذه القلوب الفياضة بالحب والمملوءة بالخير، فوالله إن

فرحتى بحبكم لى لهى أكبر عندى من النجاح.. فلو أننى حصلت على المرتبة الأولى لما أمكننى معرفة هذا الإخلاص والحب الكامن فى قلوبكم»..

ثم مدت الأم يدها لتمسح دموع الصبى وتحضنه بحنان الأمومة ثم تقول له: «لقد تمنيت أن يكون لى ولد فرزقنى ربى بمن هو خير مما تمنيت.. فقد أعطانى ابنًا أكاد أن أرى فيه وجه الملائكة، فيكفى أنك تحمل كتاب الله فى قلبك، وتتلوه آناء الليل وأطراف النهار.. فإذا بابنتها ترسم البسمة على وجهها قائلةً:

«صدقني؛ لن أدخر جهدًا فى العام القادم حتى تكون أنت الأول على المدرسة ولو اضطرنى ذلك إلى أن آخذ دروسًا خصوصيةً فى كل المواد حتى يحضر المدرسون إلى هنا ليقوموا بالشرح لى ولك على السواء وذلك عوضًا عن عدم ذهابك إلى المدرسة».

فقال الصبي: «ومن قال لك أننى لا أملك مثل هذا المدرس.. بل وأفضل من ذلك.. إن مدرسى الخاص ذو مواصفات خاصة.. فهو فى مثل سنى وأجمل منه لم ترى قط عيني»..

فعلمت الفتاة أن الحديث عنها فتغير لونها خجلًا.. ثم تركهم ليذهب إلى عمله وهو أسعد الناس على وجه الأرض.. ليس لنجاحه فحسب بل فرحًا بتلك القلوب التى غمرته بحبها، وعوضته عن الحب الذى فقده.. بل إن حبهم له كان يفوق حبهم لأنفسهم.. وبرغم كل تلك اللحظات السعيدة إلا أن هذه السعادة ينقصها أشياء كثيرة حتى

تكتمل ومن أهمها رؤية أبيه وأخته وعودته إلى بيته.

فاختلطت دموعه بفرحته عندما فكر فيهم وكيف له أن ينساهم وهم فى قلبه أينما ذهب وأينما كان.. ثم تجيء الفتاة فتجده غارقًا فى أحزانه سابحًا فى دموعه فتسأله:

«ما الخبر؟» فيجيب: «لا شيء»، فقالت: «كيف لا شيء، وقد ملأت دموعك كل وجهك؟» فينظر إليها فى صمت فإذا به تقول له: «لا بد وأنك تفكر فى أبيك وأختك».. فيقول: «لكم كنت أتمنى أن أكون بينهما.. حتى تكتمل سعادتي».. فقالت الفتاة: «لقد حسبت أننى أعوضك عما تشعر به من حرمان».. فقال: «إن لك مكانةً فى قلبى لا تضاهيها مكانة، ولكنه أحب الناس إلى قلبى فبهم عشت ولهم أحيا ومن أجلهم أموت».

فقالت الفتاة: «لقد قطعت بداية الطريق إليهم وسوف تتمه على خير وبنجاح حتى تعود إليهم وأنت تحمل معك حلم أبيك، وسوف يكون فى أحسن حال».. فقال الصبي: «لا أعلم إذا كنت أريد أن تمر الأيام سريعًا أم أتمنى أن تظل كما هي، فأنا فى حيرة من أمري.. فلو أنها مرت سريعًا لعدت إلى أحب الناس وتركت أحب الناس وكأنه كُتِب على دائمًا أن أفارق من أحب فهم أهلى وأعز الناس إلى قلبي، ولكن فراقى لكم وبعدى عنكم سيجعل فرحتى بهم غير كاملة».

فإذا بالحاج كامل يأتى وسط هذا الحوار ويسمع تلك الكلمات التى إن دلت على شيء فإنما تدل على وفاء ذلك الصبى له ولأسرته..

ذلك الوفاء الذى يزيد من حب الرجل له ويجعله بمثابة ابنه ثم يقول الحاج كامل: «خيرًا يا أولاد؟ ماذا فعلتم فى نتيجة الامتحانات؟» فتقول له ابنته: «كل الخير يا أبي، فلقد نجحنا وبتفوق غير مسبوق».. فيقول لها الأب: «ولكم عندى بذلك النجاح فسحة فى مكان تختارونه وفى أى وقت تشاؤون».

قالت عزة: «لكم أتمنى أن أذهب إلى حديقة الحيوان بالقاهرة».

قال الأب: «لك ما شئت».

# (قلب ينبض بالحب)

وفى صباح اليوم التالى ذهب الجميع إلى حيث اختارت الفتاة، وهناك جلس الأب وزوجته فى ظل شجرة وقال لهم: «اذهبوا أينما شئتم وتمتعوا بيومكم فما خرجنا إلا لأجلكم»..

فانطلقا سويًّا لا يقيدهم شيء ولا يحول بينهما حائل حتى وصلا إلى بيت الطيور حيث تبادلا النظرات، والتى عبرت عما فى قلوبهم دون أن تتحرك الشفاه، وقطعت الفتاة ذلك الصمت وتلك النظرات بقولها: «أريد أن أخبرك شيئًا». فلم يرد عيها..

فقالت مرةً أخرى: «محمد.. أريد أن أخبرك شيئًا يجول فى خاطري».. لكنه لم يعرها اهتمامًا.. فقالت: «ألا تسمعني؟»، فقال: «بل أسمعك بقلبى قبل أذني، ولكنى أخشى أن يكون هذا الشيء هو ما يكمن بداخلي»..

فقالت: «وما الذى يكمن بداخلك».. فصمت طويلًا وهو ينظر إليها ثم قال: «لا شيء؛ فقولى ما شِئت»، فإذا بوجهها يتغير خجلًا ثم

تقول: «لا أدرى إن كنت أصارحك لأننى أحبك؟ أم أنتظر حتى تقولها أنت؟»، فإذا بالصبى تتملكه الدهشة والفرحة والحزن كل ذلك فى آن واحد، فتلك هى الكلمة التى ظل يحلم بها منذ أن رأى وجهها فهل يوافقها ويبادلها ذلك الحب بحب أكبر؟ أم أن ذلك يعد خيانةً لأبيها والذى طالما اعتبره بمثابة ابن له وائتمنه عليها؟

كل ذلك يدور بخاطره وهو صامت لا تتحرك شفتاه لا يدرى ماذا يقول.. أو ماذا يفعل.. فلكم كان يتمنى أن يأخذها بين ذراعيه ويخبرها أنه هو أيضًا يبادلها نفس الحب بل أكبر منه بكثير.. ولكنه يقطع ذلك الصمت بقوله:

«إننى أسعد الناس بذلك الحب ولكن لا ينبغى أن أوافق عليه إذ أننى لو فعلت ذلك لارتكبت أكبر جريمة فى حياتي».. فقالت عزة: «لست أرى فى الحب الطاهر جريمةً»، فقال: «بل هو أساس الجريمة»، فقالت: «أى جريمة هذه التى تتحدث عنها؟» .. فقال: «جريمة الخيانة»، فقالت: «أى خيانة؟ ولمن؟»..

قال والدموع قد ملأت وجهه: «خيانة القرآن الذى أحمله فى قلبى الذى يسكن بين ضلوعي.. وخيانة ذلك الرجل الصالح وتلك الأم الحنون اللذين أعطونى من الحب والعطف أكثر مما أستحق، اللذين ائتمنانى على شرفهم المتمثل فيك أنت ابنتهم الوحيدة.. فهل ترضين لى أن أكون ذلك الشخص الذى يخون تلك الأمانات؟»..

فتصمت الفتاة ولم تجد كلمات تعبر بها عما بداخلها.. فقد ازداد حبها له بما قاله لها، وعلمت أنه ذلك الحب الذى بحثت عنه طول

حياتها، وأنها سوف تفعل المستحيل حتى لا يضيع منها.. فانهمرت الدموع من عينيها وقالت: «لكم أنا سعيدة بما أرى وأسمع، وإن كلامك هذا أعظم عندى من كل قصائد الحب»..

فابتسم الصبى وقال: «إذا كان الأمر كذلك، فأرجوك ساعدينى على ألا أخون ثقة أبويك في، وساعدينى على أن أكون جديرًا بحبك لي».. فإذا بها تخرج منديلًا من حقيبتها وتجفف الدموع التى انهمرت من عينيه وهى تقول: «فى حياتى لم أر مثلك وفى حياتى لن أحب غيرك».. ثم تطلب منه العودة إلى أبويها. فيأخذها إلى هناك ويسعدا بقية يومهم ثم يعود الجميع إلى حيث أتوا، ويدخل الصبى ليخلد إلى النوم بعد هذا اليوم المملوء بالمرح والسعادة..

ولكن هيهات أن يعرف النوم سبيلًا إلى عينه أو أن يغمض له جفن. أما الفتاة فجلست مع أبويها لتخبرهم بكل شيء ولم تجد فى ذلك حرجًا، بل وجدت فى ذلك كل الفخر وكل الشرف فى أنها أحبت مثل ذلك الفتى.. فإذا بالأب بعد أن استمع إلى ابنته التى يثق فيها كل الثقة تغمره السعادة التى ظهرت على وجهه وهو يسأل ابنته: «فهل تحبينه حقًّا؟» فقالت: «ولم لا، وأنا أرى فيه صورةً منك فى خلقك وعطفك»..

فإذا بالأب يربت على كتفيها وكأنه يبارك ذلك الحب، ثم يتوجه إلى ذلك الصبى ويطرق عليه الباب، فإذا به يفتح الباب مسرعًا.. فيقول له الحاج كامل: «أما زلت مستيقظًا حتى الآن؟» فيقول: «حاولت أن أنام ولكن دون جدوى»..

فيقول الحاج كامل: «لقد جئت إليك لكى أشكرك على ما فعلته مع ابنتي، ولكم أتمنى أن يجمع بينكما القدر فلن أجد خيرًا منك زوجًا لها»، فقال الصبي: «هل أخبرتك عزة بما حدث؟»..

قال: «وهل تستطيع هى أن تخفى عنى شيئًا؟ لقد أخبرتنى بكل ما حدث بينكما، ولكم أنا سعيد بما فعلته، وأعلم أن الدنيا لا تساوى عندى فرحتى برجل أأتمنه على ابنتى بعد موتي، ولكن هل يرضى أبوك بنا نسبًا؟»، فقال الصبي: «إن أبى لا يختلف عنك كثيرًا، فهو يحبنى كحبك لعزة ويتمنى لى السعادة حيثما كانت وأينما وُجِدت».. فقال الرجل: «على كل حال؛ دع الأيام تمر والقدر يقرر ما تؤول إليه الأيام»..

ويعود الصبى إلى فراشه وكأنه قد فُرِش حريرًا، فينام نومًا عميقًا، ويرى فى نومه كل أمل يتمناه وكل حب يسعد به..

وإذا بالأيام تمر سريعًا حتى تأتى امتحانات العام الثاني، ويفعل الرجل مثلما فعل فى العام السابق ويفرغ الصبى تمامًا إلى مذاكرته، فكان يذاكر هو والفتاة سويًا حتى ساعات متأخرة من الليل.. ولم يكن الأبوان فى حاجة إلى أن يظلا بجوارها، فلقد أصبح الصبى أكثر من أخ لابنته فهو الذى يحميها من أى شيء يطالها بسوء.. ويحميها حتى من نفسه..

وكان دائمًا ما تتخلل تلك الساعات الطويلة من المذاكرة لحظات من المرح منها عندما يغفى الصبى قليلًا، فإذا بعزة تنهره فى كتفه قائلةً له: «ركز يا أستاذ، فلم يعد أمامك شيء تتحجج به فى عدم

حصولك على المركز الأول، أم أنك تريد أن تركن إلى ذلك الترتيب الذى حققته العام الماضي؟»..

فقال: « كان عندى أعظم من حصولى على المرتبة الأولى، فقد كشف لى مقدار حبكم لى ومع ذلك سوف أبذل قصارى جهدى كى أحقق درجات أعلى منك بقليل».. قالت: «ولم لا يكون أكثر مني؟»..

قال: «حتى لا أحزن عليك، إذ أننى أحبك أكثر من نفسى وأتمنى لك الصدارة والازدهار ولوالديك الفرحة والسرور»..

# (الماضى الأليم)

ومرت الأيام وانتهت الامتحانات على خير وظهرت نتيجتها وحدث ما لم يتوقعه الجميع.. لقد كان ترتيبه الأول مكرر ولكنها تسبقه بأسبقية ترتيبها الأبجدي.. و

كان الحاج كامل فخورًا بهما وكان الصبى سعيدًا لكونه اقترب من موعد لقاءه بأبيه وأخته، فلم يعد أمامه سوى خطوة واحدة يخطوها حتى يعود إليهم.. تلك الخطوة التى تمثل نهاية معركة بينه وبين الأيام.. بينه وبين اليأس الذى تملكه يوم رحيله عنهم، كما أنها تمثل نهاية مرحلة عاش فيها أسعد لحظات حياته وأحبها إلى قلبه..

فبالقدر الذى كان يشعر به من ألم كان يملأه الحب حتى أن ذلك الحب قد أنساه تلك الحرب التى شنتها عليه زوجة أبيه والتى كانت سببًا فى كل ما يحدث له.. حتى أنه لا يدرى ماذا سيفعل معها يوم يلقاها.. هل ينتقم منها لما فعلته به؟

أو لأنها كانت السبب فى بعده عن أهله كل هذه السنوات؟ أم

يقبل قدميها لأنها كانت سببًا فى معرفته هذه الأسرة الطيبة التى يعيش معها ومعرفته بهذه الفتاة التى أحبها من كل قلبه، فهو لا يدرى ماذا يفعل معها، ولكنه قرر فى نفسه أن يعفو ويصفح متذكرًا قول الله عز وجل: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾..

ومرت الأيام.. وفى يوم جاء تلغراف إلى الحاج كامل فستلمه، وحين قراه أخذته الدهشة وملأت عينه الهموم ثم قال: «مش ممكن.. مش معقول».. فقالت ابنته: «وما الغريب فى هذا؟» فقال: «إنه من الصعيد يا حاجة زينب»، فقالت ابنته: «وما الغريب فى ذلك يا أبي.. أكيد ده من أحد أصحابك».

فصمت الأب قليلًا ثم قال: «يا ترى ما سبب هذا التلغراف الذى يطلبوننى فيه على وجه السرعة؟»، فقالت ابنته: «من هم الذين يطلبونك؟ ولم كل هذه الدهشة؟ فأنا لا أفهم أى شيء!»

فقال الحاج كامل لزوجته: «ترى ما الأمر؟ لا بد وأن أمى مريضة».. فقالت ابنته: «وهل ما زالت جدتى على قيد الحياة؟ فلم أسمعك يومًا تتحدث عنها».. فإذا بالرجل تخور قواه ويسقط على أقرب كرسى له، ويصفر وجهه وتنهمر عينيه بالدموع وابنته ما زالت تسأله:

«هل جدتى ما زالت على قيد الحياة؟».. فقال الأب: «نعم».. قالت ابنته: «وماذا أيضًا هناك تخفونه عني؟ ماذا يحدث يا أبي؟».. قال: «سأترك والدتك تخبرك بكل شيء، ولكن على الآن أن أسافر مسرعًا لعلى أرى أمى قبل أن يصيبها مكروه»..

وذهب ليجهز حقيبته وزوجته معه.. وجلس محمد وعزة وكأن على رؤوسهم الطير لا يفعلون شيئًا سوى أن ينظر كل منهما إلى الآخر، وما أن انصرف الحاج كامل حتى توجهت ابنته إلى أمها والحزن يملأ وجهها وقالت: «لا بد يا أمى وأنك تعلمين كل شيء.. فأرجوك أخبرينى بكل ما حدث فأنا لا أطيق الانتظار»..

فقالت أمها: «سوف أخبرك بكل شيء، فلم يعد لدينا مقدرة حتى نخفى عنك ذلك الأمر أكثر من ذلك».. ثم وقفت الأم وهى لا تدرى من أى النقاط تبدأ حديثها حتى نظرت ابنتها إليها والدموع تملأ عينيها ولسان حالها يتوسل إلى أمها كى تتكلم حتى قالت الأم:

«منذ أكثر من أربعين عامًا كان أبوك يدرس هنا فى جامعة الزقازيق فى كلية الزراعة، وكنت أعمل بأحد المكتبات وعند عودتى تعرض لى بعض الشباب بالإساءة وكان أبوك يقف قريبًا أثناء ذلك، ولم أكن أعرفه فى ذلك الوقت، ولكنه حاول أن يدافع عنى حتى أنه قامت بينه وبينهم مشاجرة حتى انتهت بأن طعنه أحدهم بسكين فى جنبه وفر هاربًا، وسقط أبوك غارقًا فى دمائه على الرصيف، فحمله الناس وذهبوا به إلى المستشفى وذهبت معه حتى أطمئن عليه، وظللت بجواره حتى علمت بأنه أصبح فى حالة جيدة، فتركته وعدت إلى بيتى وأنا لا أعلم عنه شيئًا غير أننى لم أر ذلك الفعل من شاب سواه، ولم يكن أمامى سوى أن أذهب إليه مرةً أخرى كى أطمئن عليه، وأشكر له فعله فوجدته قد تحسن كثيرًا، ودار بيننا حديث وسألته عن اسمه وأخبرته أنا أيضًا عن اسمي، ثم تحدثنا فى أمور كثيرة حتى علم

كل منا ما كان يريد أن يعلمه عن الآخر، وعلم أن لى أمًّا كبيرة فى السن أرعاها، وأنه لا يوجد لدينا أى مصدر للدخل، وطلبت منه بعد شفائه أن يأتى لزيارتنا فى بيتنا المتواضع لأن أمى كانت تريد أن تراه وتشكره على ما فعله معي..

وبالفعل جاء إلى بيتنا وقابلته أمى وانحنت على يده تقبلها، ثم نزع يده وقال فى تواضع: «إن ما فعلته كان ممكنًا أن يفعله الآلاف غيرى من الناس.. ثم قضى معنا وقتًا طويل ثم انصرف.. وأخذت الأيام تمضى وأنا أتمنى أن أراه مرةً أخرى، فلقد أصبح يمثل جزءًا هامًّا فى حياتى لم أكن أطمع فى حبه أو الزواج منه، فلقد علمنا منه أنه من عائلة كبيرة وميسورة الحال فى الصعيد، أما أنا فلا أملك من حطام الدنيا شيئًا.

ومضت الأيام.. وبعد انتهاء العام الدراسى جاء ليودعنا لكنه لم يجدنى فى البيت فسلم على أمى وترك لى السلام معها.. وعندما أخبرتنى أمى بذلك لم أكن أصدق نفسى وعشت أنتظر انتهاء الأجازة حتى يعود ولكنه لم يأت.. ومضى عام كامل وأنا أنتظره ولم أفقد الأمل فى رؤيته.. وفى هذا العام ماتت أمى وكثرت عيون الطامعين في، ولكنى لم أنظر إلى أى أحد منهم فقلبى لم يزل مشغولاً به..

وفى يوم ما جاء إلى بيتنا فوجده مغلقًا فسأل الجيران عنا فأخبروه أن أمى قد ماتت وأننى فى العمل فجلس ينتظرنى حتى رجعت وساعتها لم أكن أصدق عينى عندما رأيته، فاقتربت منه فإذا به هو.. فقلت له: «هل جئت لتودعنا بعد هذه الأيام الطويلة التى

غبتها عنا».

قال: «بل جئت لأبقى». فأخذتنى الدهشة، فقال لي: «جئت لأتزوجك فهل توافقين؟».. قلت: «كيف أرفض، وقد كنت أنتظرك». فقال: «هل كنت تعلمين؟»..

قلت: «بل كنت أشعر بذلك وأحسبه».. فذهبنا إلى مأذون وتزوجنا فى نفس الليلة لأنه رفض أن يدخل معى البيت قبل أن نتزوج، وعشنا أجمل ليلة فى عمر أى زوجين.. قضينا فيها على الوحشة وقطعنا بها أيام البعاد..

وفى الصباح سألته عن سر غيابه فقال: «إن هذه السنة كانت السنة الأخيرة له فى الكلية، وحصل على بكالوريوس الزراعة وسافر إلى بلدهم، ثم دخل إلى الجيش، وبعدها قرر أهله أن يزوجوه بنت خاله.. فرفض وطلب منهم أن يخطبونى له.. وكان قد حكى لهم كل شيء عني، فرفضوا فجاء إلى هنا كى يتزوجني.. فعندما أخبرنى بذلك علمت أن زواجنا لن يستمر طويلاً لأنه تم بدون رضا أهله..

ومر أسبوع وفكر أبوك فى عمل فعمل كمسرى فى السكة الحديد لأن راتبها كان أكبر من راتب العمل بالشهادة..

ومرت الأيام ومضى على زواجنا ٥ شهور وفى يوم ما جاء أخوه من الصعيد ولم يجد أباك فى المنزل فقمت معه بكل واجب وكأن أباك فى المنزل.. وعند قدوم أبيك إلى المنزل أسرع إليه ليحتضنه، فإذا بعمك يأبى ثم يقول له: «لقد جئت لأتحدث معك فى أمر هام».

فقال له أبوك: «وما هو هذا الأمر الهام؟» فطلب منه عمك أن

يتحدثا على انفراد.. فقمت لكى أخرج، ولكن أباك رفض وأبقاني، وقال له إن زينب زوجتي، ولا يوجد بينى وبينك شيء لأخفيه عنها، فتكلم عمك وكان قاسيًا فى حديثه.. لقد قال لأبيك: «المفروض يا كامل أنك أخذت غرضك من البنت دى يعنى النزوة انتهت..

بمعنى أصح المفروض أنك تطلقها وتعود إلى أهلك وبلدك وكفاية المرمطة دي.. وكفاية أنك اشتغلت كمسري، فإذا بأبيك يقول له: «أولًا؛ دى مراتى واسمها زينب يعنى مش بنت، ثانيًا والأهم: أنا تزوجت الست دى لأنى أحببتها يعنى مش من أجل نزوة أو أنال غرضى والسلام يا خويه يا كبير»..

فإذا بعمك يقول: «يعنى بترفض يا كامل؟»، فقال أبوك: أيوه؛ بارفض يا سالم، وما عنديش كلام تانى أقوله».. قال عمك: «عداك العيب يا كامل.. بس كلمة تحطها حلقة فى ودانك لو رجليك عتبت البلد أنا ها قتلك بيدي»..

قالها ثم خرج وهو مملوء بالغضب، فاقتربت من أبيك أحدثه كى يلحق بأخيه فإذا به يعتذر لى عن الإهانات التى قالها أخوه فى حقي، ثم طلب منى ألا أتحدث فى هذا الموضوع مرةً أخرى..

ومرت الأيام علينا فى سعادة، ولكن الله لم ينعم علينا بالخلفة.. ومضت سبع سنوات دون إنجاب، وفى يوم من الأيام جاء أخوه وفى هذه المرة جاء ليأخذنا معه إلى البلدة لنعيش وسط أهله ولم يعص أبوك أخاه فى هذه المرة، وسافرنا إلى الصعيد وعشنا هناك ما يقرب من شهرين لم أذق فيهما طعم السعادة قط..

مضت أمه وزوجة أخيه يلومونني بقلة الخلفة بطرق كثيرة ولكن تحملت كل ذلك من أجل أبيك لأنني كنت أشعر أنه سعيد في بلده وسط أهله.. وذات ليلة طلبت منه أمه أن يتزوج علي لكي ينجب، فأخبرها أبوك أن هذا الأمر بيد الله، وأن البشر ليس لهم يد في ذلك، وأنه لن يطلقني أبدًا كما أنه لن يتزوج علي..

فإذا بعمك يرفع صوته قائلًا: «لقد وافقت أمك على أن تعيش معنا لعلك تعود إلى رشدك أو لعلها تستطيع إقناعك ولكنك ترفض وبشدة».. فقال أبوك: «ولن أوافق أبدًا».. فقال عمك: «يبقى مالكمش عيشة معنا في هذا البيت ده»..

فقال له أبوك: «أعطني نصيبي في ميراث أبي وسوف نرحل في الصباح أنا وزوجتي، فقال عمك: «وليه الصبح.. دلوقتي حالًا، وأحضر عمك مبلغ عشرين ألف جنيه، وأعطاها لأمه ثم أحضر عقدًا ليوقع عليها أبوك، فوقع أبوك على عقود بيع نصيبه في ميراث أبيه..

فإذا بأمه تقذف الفلوس في وجه أبيك ثم تقول له: «ابني كامل مات.. واوعى رجلك تعتب هذا البيت طول ما أنا على قيد الحياة وعلى وش الدنيا».. فقال عمك: «وحتى بعد ما تفوتيها بعد عمر طويل يا أمي.. ولم يكن هذا المبلغ هو كل نصيب أبيك، ولكنه قبل لشدة إيمانه بالله، فأحب أن يكون مظلومًا بدلًا أن يكون ظالمًا.. وطُرِدنا من البلد وجئنا إلى بيتنا وعاد أبوك إلى عمله، وقمنا ببناء هذا البيت كما هو الآن..

ومرت الأيام وأخبرني أبوك أن هناك حديثًا لرسول الله صلى الله

عليه وسلم يقول فيه: «زمزم لما شُرِب له».. وطلب منى أن نذهب إلى الحج.. وبالفعل ذهبنا وشربنا ماء زمزم ووقفنا بجوار الكعبة، وأخذنا ندعو الله أن يرزقنا الخلف الصالح وانتهى موسم الحج ورجعنا إلى بلدنا.. ولم يمض على رجوعنا من الحج سوى خمسة شهور، وشعرت بالحمل وذهبنا إلى الدكتور وأخبرنى أننى حامل فى شهرى الثاني، فلم تسع الدنيا أباك من شدة فرحته..

ومرت الأيام علينا ونحن فى لهفة وشوق إلى المولود الذى انتظرناه منذ ثمان سنوات.. وبالفعل تمت الولادة ورزقنا الله بك أنت فأسرع أبوك يكتب خطابًا إلى أهله يخبرهم فيه بأن الله قد رزقنا بطفلة.

وبعد أيام جاء الرد على خطابه ففتحه مسرعًا ليرى أثر هذا الخبر عندهم.. فإذا به يقرأ الخطاب ثم يغلقه، والدموع فى عينيه.. ثم يجلس فيستغفر الله ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، فسألته عما فى الخطاب فأعطانى الخطاب فإذا بعمك يقول فيه إن ما تفرحون به الآن كان يُدْفَن فى التراب وهى ما زالت حيةً قديمًا حتى لا تجلب العار إلى أهلها وليتكم تفعلون مثل ما كانوا يفعلون قديمًا..

فقلت: «لا حول ولا قوة إلا بالله.. ماذا جرى لهؤلاء الناس».. فقال أبوك: «لقد أعمتهم الفلوس وأنستهم ذكر الله وقدرته فيهم»..

ومن ذلك اليوم لم تصلنا عنهم أى أخبار ولم يسألوا عنا بخطاب واحد إلى يومنا هذا.. لهذا كله رفض أبوك أن يحدثك عنهم أو يذكر حتى أن له أهل، لأنهم استنكروه من زمان»..

ولم تكن الحاجة زينب تحكى بهدوء، ولكنها كانت تحكى والدموع

تصاحب حديثها، وعندما انتهت من الحديث احتضنتها عزة وهى تقول: «يا حبيبتى يا ماما.. يا حبيبى يا بابا».. كل هذا الظلم تحملتموه وحدكم.. ثم قالت عزة: «أنا كمان مش عاوزه أعرفهم ولا أسمع عنهم»..

ثم نظرت عزة وأمها إلى الصبى فإذا به غارقًا فى همومه سابحًا فى دموعه، فسألته الحاجة زينب: «لم كل هذا الحزن؟».. فقال الصبي: «لم أكن أعلم أن هناك من هو أظلم من زوجة أبي، وأن هناك من ارتضى الظلم مثلي.. ولكنى أتعجب.. فزوجة أبى فعلت كل هذا بى لأننى لست ابنها.. أما عمى كامل كيف تفعل به أمه كل ذلك؟ ما نوع هذه الأم وما الذنب الذى ارتكبه فى حقها؟»..

فقالت الحاجة: «ذنبه الوحيد أنه تزوجني».. فقالت عزة وهى تنظر إلى الصبي: «الحمل زاد والمهمة أصبحت صعبةً بكثير عما ذى قبل».. فقال الصبي: «ولماذا؟».. فقالت: «لا بد أن نذاكر أكثر من أى عام سابق لكى تعود إلى أهلك مفتخرًا، ولكى أثبت لعمى أو لمن فرضته على الظروف ليكون عمي.. أن أبى لم ولن يصيبه العار، ولكن الله أعطاه كل الفخر والشرف يوم أن أعطانى له»..

ثم انتهت تلك الليلة الحزينة التى عرفت فيها عزة أن لها أهلًا، ولكنها لا تريد رؤيتهم كما رفضوها هم من قبل، بل أرادوا لها الموت وأن تُدفَن فى التراب وهى على قيد الحياة، فهى لا تستطيع أن تحدد أى نوع من البشر هؤلاء..

ومرت أيام قلائل وكانت عزة قلقةً على أبيها.. وعاد الأب بعد

أسبوعين من سفره.. عاد والحزن يملأ عينيه.. فعلم الجميع أن والدته ماتت.. وبالفعل عندما سألته الحاجة عن سبب غضبه، فأخبرهم أن أمه ماتت ولم تمت إلا على صدره، وكانت ترجوه أن يسامحها كما تمنت أنكم لو ذهبتم معى لكى تراكم قبل موتها..

فقالت عزة: «الآن تريد أن ترانى رغم أنها رفضتنى من قبل.. ليس هذا فحسب بل أنها تمنت لى الموت».. فقال الحاج كامل: «هل أخبرتك أمك بذلك؟»..

قالت عزة: «نعم؛ أخبرتنى بكل شيء.. أخبرتنى بكل الظلم الذى عشته أنت وهي».. فقال الحاج: «لم يعد هذا يفيد.. فأرجوكم أن تصفحوا عنها وتطلبوا لها الرحمة».. فخضعت الحاجة لطلبه على الفور ورفعت يدها إلى السماء تطلب لها الرحمة، ولكن عزة قالت: «لن أفعل ذلك أبدًا»..

فإذا بالصبى يهمس لها بأنها الآن أمام الله إن شاء عذبها وإن شاء غفر لها، وكما قال صلى الله عليه وسلم: «اذكروا محاسن موتاكم». فقالت عزة: «وهل كان لها محاسن لأذكرها؟».

فقال الصبي: «إن لم تكن هى تستحق، فافعلى ذلك من أجل أبيك حتى لا تزيدى حزنه على أمه». فرفعت عزة يدها إلى السماء كى ترضى أباها، ولكن قلبها ما زال يستنكر هؤلاء البشر.. ولكن ما زال هناك شيء ما أكبر من موت أم الحاج كامل يجعله شديد الحزن.. فقال له الصبي: «هل كل هذا الحزن من أجل موت الحاجة الكبيرة.. فأنا أراك حزينًا كأنك تعلم ساعة موتك».

فقال الحاج: «لا؛ ليس هذا الحزن على أمي، ولكن حدث هناك ما يجعلنى حزينًا».. فقالت الحاجة فى لهفة: «ماذا حدث؟»..

وكان الحاج واقفًا فجلس، ثم قال: «أخى ...».. قالت الحاجة: «ماذا فعل؟».. قال: «لقد ماتت أمى بالأمس فقط وبعد الدفنة رجعنا إلى صوان العزاء، فإذا بأخى يمنعنى من دخوله قائلًا لي: «إن هذا الصوان من أجل عزاء الرجال فقط.. أما الحريم فلا عزاء لهم عندنا.. فلم أقل له شيئًا، وانصرفت فى صمت إلى البيت فإذا به يبعث لى أحد أبنائه ليخبرنى ألا أجلس فى البيت بحجة أن ذلك وصية أمنا وأننى أعلمها تمام العلم، فتركت البلدة من فورى وجئت إلى هنا فإذا بعزة تصرخ بصوت مرتفع والدموع فى عينها: «مستحيل ده يكون أخ! مستحيل يكون ده إنسان أو من جنس البشر! ده شيء فظيع لا يمكن أن يتصوره عقل.. فوالله لن أصفح عنه أبدًا طول حياتي»..

# (عزم ومثابرة)

ومرت الأيام وعادت السعادة إلى البيت من جديد.. وبدأ العام الدراسى الجديد والذى يُعَد آخر عام بالنسبة إلى الأولاد فى مدرسة الزراعة، فإما أن يتحقق حلمهم، وإما أن يضيع كل شيء هباءً.

وزادت عدد ساعات المذاكرة.. وكانت الأيام كلما مرت على الصبى كان يشعر بقرب المسافة بينه وبين أبيه وأخته وأنه سوف يراهم عن قريب.. فكانت سعادته لا تُقَدر، عكس عزة التى زادت همومها يومًا تلو الآخر كلما اقتربت لحظة الفراق.. فحتمًا سيعود الصبى إلى أهله وتبقى هى وحيدةً كما كانت من ذى قبل، فهى تتمنى لو أنه يبقى معهم إلى الأبد..

ففى ذات ليلة سألته عزة: «هل سترجع إلى أهلك؟».. فإذا بالسؤال يغير وجه الصبي، ويقف فزعًا ثم يقول: «وهل فعلت وما زلت أفعل كل هذا إلا من أجل العودة إليهم؟ وهل تركتهم إلا من أجل البقاء معهم؟ وهل رضيت بكل ذلك الحرمان إلا من أجلهم؟»..

قالت عزة: «وما الحرمان إذًا؟».. قال: «البعد عن حضن أبى حرمان، والبعد عن أختى الوحيدة حرمان، والبعد عن بلدى حرمان، والبعد عن بيتنا الذى عشت فيه أيام طفولتى حرمان.. أرأيت؛ كل هذه أشياء محروم منها». فإذا بالصبى يرى فى عينيها تساؤلاً تريد الإجابة عليه.. ولكنها تخجل أن تقوله، فقال لها الصبي: «فليطمئن قلبك فأنا لن أعالج حرمانًا بحرمان، فأنا لن أنساكم أبدًا ولن أتخلى عنك أبدًا ما حييت»، فهدأت عزة وعادت إلى المذاكرة بعد أن اطمئن قلبها على حبها الوحيد فى هذه الدنيا..

وراحت الأيام تمضى فى سعادة واجتهاد.. وقبل موعد الامتحانات بشهر قرر الحاج كامل أن ينقطع الصبى للمذاكرة فقط وقال له: «ها أنت ذا تضع قدمك على أول الطريق، فهيا انطلق بسرعة ونشاط حتى تصل إلى نهايته قبل أن يفوت الوقت».

ومضى الصبى يذاكر دروسه فى انتحار.. فلم تكن عيناه ترى النوم إلا ساعات قلائل، وكان الله دائمًا فى عونه لأنه لم ينسى أبدًا ذكر الله.. وجاءت الامتحانات وبدأت الجولة الأولى فى معركة إثبات الذات، وكان الصبى موفقًا إلى أبعد الحدود، وانتهت فترة الامتحانات على خير، وعاد إلى عمله فى المحل من جديد ولم يكن قلقًا على النتيجة لأن ثقته بالله كبيرة وأنه يعلم أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

وكانت الأيام تمضى ثقيلةً، وعاد الصبى يفكر فى كل لحظة غربة بَعُد فيها عن أهله.. ويسأل نفسه: «يا ترى ماذا حدث لهم؟ ترى هل ما

زال عندهم أمل أننى سأعود إليهم؟ أم أنهم فقدوا الأمل فى عودتى ونسوني؟ وأهل قريتي؛ هل ما زالوا يذكرون ذاك الصبى الطيب الذى كثيرًا ما متعهم بصوته فى قراءة القرآن أم أنهم نسونى أيضًا؟».

ثم يعود إلى نفسه قائلًا: «لو أن العالم بأكمله نسانى فإن أبى وأختى لن ينسونى أبدًا».. ثم خطر إلى ذهنه أن أباه قد يكون فى عداد الأموات، فتسيل الدموع من عينيه ثم يرفع يديه إلى السماء يدعو اللّه عز وجل أن يكون أبوه وأخته على قيد الحياة..

وتمضى الأيام، وتظهر النتيجة، ويحدث ما لم يتوقعه الصبى ولا الحاج كامل وأسرته.. لقد حدث ما جعل الحاج كامل وزوجته فى سعادة أكبر من تلك التى شعروا بها يوم زواجهم..

لقد جاء ترتيب الصبى الأول على محافظة الشرقية وعلى مستوى الجمهورية، أما عزة فكان ترتيبها الثانى على المحافظة والثامن على مستوى الجمهورية، ولكن سعادتها بنجاح محمد وتفوقه لا تُقَدر، وكانت تشعر وكأنها هى التى حققت ذلك التفوق، ولكن هذه السعادة تكسوها دموع الفراق الذى جاءت ساعته وحانت لحظته.. وكانت سعادة الصبى بعودته إلى أبيه وأخته لا تُقَدر، وكذلك دموعه على فراق أسرته الثانية لا تُقَدر، فكان يوم النجاح هو نفسه يوم الفراق.

شاهد الحاج كامل الدموع فى عينى الصبى فقال له: «أيوجد من يبكى يوم تفوقه؟ لا بد وأن سبب هذا البكاء هو الفرحة بعودتك إلى أهلك منتصرًا.. لقد أصبحت شابًا يفخر به كل أب».. فإذا بالصبى ينظر فى صمت ثم يقول: «إننى أشعر بأننى أتعس إنسان فى الوجود..

لقد كُتِب على أن أفارق أبًا لأعود إلى آخر، وأفارق أمًّا هى فى غاية الحنان لأعود إلى زوجة أب فى غاية القسوة.. وأفارق أختًا لأعود إلى أخرى تنتظر عودتى من سنين طويلة».

فقال الحاج كامل: «إن من الظلم لنفسك أن تقول ذلك.. بل كان يجب أن تصبح أسعد الناس فى هذا الوجود»..

فقال الصبي: «ومن أين تأتى السعادة وقد كُتِب على الفراق منذ نعومة أظفاري؟»

فقال الحاج كامل: «لقد من الله عليك بأبوين بدلًا من أب واحد، وأعطاك أمًّا طيبةً بدلًا من أمك التى حُرِمت منها، وأختًا ثانيةً بعد أن كانت لك أخت وحيدة.. أليست كل هذه الأشياء أسبابًا للسعادة؛ تجعلك أكثر الناس حظًّا فى الحياة».. ثم راح الحاج يمد يده فى جيبه ليعطى مبلغ ٢٠٠٠ جنيه للصبي.. ولكن الحيرة تنتاب الصبي.. ما الذى فعله ليأخذ هذا المبلغ، فتساءل الصبي؟

ما هذا يا حاج؟ قال: «هذا حقك يا ولدي؟».. قال الصبي: «وهل لى عندكم حق؟»..

قال الحاج: «نعم؛ فلقد أخذت على نفسى عهدًا أن تكون أرباح المحل مناصفةً بينى وبينك.. فلقد اشتركت أنا برأس المال وساهمت أنت بالمجهود، كنت أنفق عليك من نصيبك من الربح، وهذا باقى نصيبك، أى أنه ليس لى عندك أى جميل أو معروف.. فلقد عشت معنا بمالك وعملك»..

فإذا بالصبى يرتمى على قدمى الحاج كامل ليقبلها.. فهل يوجد

بعد هذا عدل فى الحياة؟ وهل توجد أخلاق مثل هذه فى البشر؟ لا والله.. فأخذ الصبى النقود وقد زاد حزنه على فراق مثل هؤلاء الناس.. فلقد دخل هذا البيت وهو لا يملك سوى ما عليه من ملابس وليس معه إلا القليل من النقود، وها هو الآن يخرج منه حاملًا حقيبة ملابس مملوءة عن آخرها، ومعه مبلغ كبير من المال..

فقال الصبي: «لقد أعطيتمونى الكثير».

فقالت عزة: «لقد أخذت منا ما هو أثمن عندنا من هذه الأشياء كلها.. لقد أخذت معك قلوبنا التى أحبتك، فنرجو ألا تفرط فيها فهى أعز وأغلى ما نملك»..

فقال الصبي: «كيف أفرط فيها وهى التى أعطتنى الأمل فى العودة إلى أهلى من جديد؟»

وهم الحاج كامل والصبى أن ينصرفا، وهنا ارتفع صوت الحاجة مناديًا على الصبي.. فأسرع بالعودة إليها فاحتضنته بشدة والدموع فى عينها، ثم قالت: «وداعًا ابنى الغالى والعزيز والوحيد»..

ثم التفت إلى عزة ليودعها فإذا بالدموع تكسو هذا الوجه الملائكي.. وإذا بها تمسك يده لأول مرة منذ أن تلاقيا.. ثم تقول له: «وداعًا يا أعز الأصدقاء.. بل يا أخى الذى لم تلده أمي».. ثم تصمت قليلًا وتنظر إلى أبيها وأمها وكأنها تستأذنهم فى شيء ما، ثم تهمس قائلةً: «وداعًا يا حبيبى ويا حبى الوحيد وداعًا يا أحب الناس إلى قلبي»..

فإذا بمحمد ينظر إليها والدموع تغمر وجهه إلى وجوههم جميعًا،

ومن ثم إلى جميع جدران المنزل، ثم يقول بصوت تخنقه الدموع: «وداعًا يا أعز البيوت إلى قلبي.. وداعًا يا أعز وأغلى الناس»..

ثم يخرج الحاج كامل مسرعًا ويخرج خلفه محمد لا تسعفه الخطوات.. وتصرخ الحاجة زينب عليه بصوتها.. فيقف على سلم البيت ثم ينظر إليها فيرى الصمت يملأ وجهها، ثم يلتفت مرةً أخرى ليتابع سيره فإذا بها تقول له: «لا اله إلا الله».. فيجيبها بعد صمت قليل: «محمد رسول الله»..

ثم يمضى فى طريقه وكأنه يتخبط فى جدران هذا الحى الذى عاش فيه أجمل أيام عمره، ثم ينطلق مع الحاج كامل حتى وصل إلى محطة القطار وهناك جلس الاثنان فى صمت رهيب.. صمت ليس له صوت إلا صوت أنين القلوب.. تلك القلوب التى تعتصر حزنًا على الفراق.. ثم يقطع هذا الصمت صوت القطار حتى ركب فيه الاثنان معًا، ومضى القطار وهو لا يدرى إن كان يريد أن يمضى سريعًا أم أنه يريد ألا يمضى نهائيًّا.. ولكن القطار يمضى دون إرادة أى منهما ودون رغبة منه..

ثم يقول الحاج كامل له: «ها هى الأيام مضت، ها أنت ذا تعود مرةً أخرى إلى أحضان أبيك وأختك.. ألم أقل لك ذلك عندما التقينا أول مرة.. وها أنت ذا تعود إلى زوجة أبيك منتصرًا عليها بما حققته من نجاح، ولكنى أطلب منك ألا تدع الحقد والكراهية يتملكان قلبك فبهما تقسو الحياة، ولكن دائمًا يملؤه الحب، فالحب تنعم وبه تهون الصعاب».

فقال محمد: «لقد حدثت نفسى طويلًا بأمرها وانتهيت إلى أنه لا سبيل أمامى سوى الصفح عنها، إن لم يكن من أجلها فمن أجل أبيها، والذى ليس لى هم سوى أن أراه سعيدًا فى حياته».

فإذا بالحاج كامل يقول له: «كم كنت أتمنى أن تكون ابنًا لي».

قال محمد: «وهل أنت تشعر أنى غير ذلك؟»..

فقال: «يعلم الله أن منزلتك عندى ليست أقل من منزلة الابن عند أبيه، بل أنت أعز على من منزلة ابني، فقد كنت لى صديقًا وابنًا وأخًا بعد سنوات طويلة حُرِمت فيها من أهلى بسبب طمعهم وحبهم للدنيا، واعتقادهم بأن منازل الناس ومعادنها بما يمتلكونه من أموال»..

ثم يصل القطار إلى آخر محطة بالنسبة له، وإذا بمحمد تكسو وجهه دهشة، فكل شيء كما تركه منذ ثلاث سنوات.. لم يتغير شيء، ثم يمضيا سويًّا حتى يستقل السيارة حتى يصلا إلى قرية محمد، والتى ما زالت معالمها محفورةً فى قلبه، والتى أخذ يتخيلها ويتذكر أيامه فيها ويتذكر نفسه وهو خارج منها، ولم يكن يعلم متى سيعود إليها، ولكن ها هى الأيام مرت وها هو عائد إليها، لم تفصله عنها سوى دقائق معدودة ويكون بين أحضانها ويقبل ترابها، وها هى تلك عدة دقائق وتنتهى وها هو يقف على أول الشارع الذى يوجد فيه منزلهم.. وإذا بالحاج كامل ينظر إليه ويرى الدموع قد سالت من عينيه، فيحاول أن يجففها وأن يخفف عنه..

ولكن هيهات هيهات.. فتلك هى اللحظة التى ينتظرها منذ

سنوات ثلاث.. كل هذا ومحمد يسير وكأن أقدامه قد تحررت من قيودها حتى وصل أمام منزله، فوجد بابه مغلقًا فمد يده ليطرق بدقات خفيفة مترددة وكأنه يخشى ألا يجد أحدًا بداخله فإذا به يسمع صوتًا من الداخل يقول: «من؟»

فأجاب فى هدوء وبصوت متقطع: «أنا محمد»..

فاذا بالصوت الصادر من داخل البيت يضطرب قائلًا: «محمد من؟»

ثم يفتح الباب فإذا بفتاة جميلة تقف أمامه ما زالت صورتها القديمة محفورةً فى قلبه.. تلك الهيئة التى يراها هى نفسها تلك الصورة التى حملها بقلبه منذ ثلاث سنوات، وكذلك هى ترى أن هذا الوجه ليس غريبًا بل هو يكون أقرب ما يكون منها فهو لم يتركها ليلةً واحدةً منذ أن غاب عنها.. كان دائمًا معها كظلها وكأنه حارس لها..

فإذا بهما يقفا قليلًا ودموعهما تتحدث بدلًا من ألسنتهم التى أثقلتها دهشة الموقف وما أن تمضى لحظات قليلة حتى يترك كل منهما نفسه لتهيم فى أحضان الآخر وكأنهما يحطمان حاجز ما بينهما دام ثلاث سنوات، وإذا بها تصرخ قائلة: «محمد رجع يا أبي».. وتكررها مرات عديدة وبصوت مرتفع وكأنها تخبر جدران منزلهم وأركانه..

تلك الجدران والأركان التى كساها الحزن منذ سنوات ثلاث.. غاب فيها عن هذا البيت.. وإذا بالأب يخرج من حجرته على صراخ ابنته وهو لا يكاد يصدق أذنيه.. هل هى تهذى فى نومها؟! أم أنها

تحدث نفسها؟ ولكنه يرى أمامه أنها الحقيقة التى ظل ينتظرها لمدة ثلاث سنوات قضاها، والحزن يملأ قلبه والدموع لم تجف من عينه؛ قضاها ويداه مرفوعتان إلى السماء ولسانه لم يكل قط من الدعاء لله عز وجل أن يطيل فى عمره حتى يرى ابنه، ويطلب منه أن يسامحه على ما حدث له من زوجته، وإذا بالصبى يرى أمامه أباه جالسًا على كرسيه المتحرك..

كادت الفرحة أن تجعله يرفع ذلك الكرسى من على الأرض وينظر إلى وجه أبيه وقد غير الحزن معالمه، فقد أضناه البعد وأتعبته الآلام وكأنه لم يذق طعامًا أو نومًا منذ أن تركه محمد، وتلعثمت الكلمات على لسان محمد ولكن ينابيع الدمع لم تجف، وإذا بالأب من فرحته يكاد أن ينسى عجزه ويتحرك نحو ابنه ليحتضنه حتى يذيب سنوات البعد الطويلة، ثم يلقى محمد بنفسه فى أحضان أبيه وما زالت الفرحة تربط لسانه وكذلك الأب لا يستطيع الحديث..

أما شقيقته أنين فقد علمت أن الرجل الموجود بالباب لا بد وأنه تربطه بأخيه قصة ما، فأخذت ترحب به وأدخلته إلى المنزل ثم راحت تزف خبر عودة أخيها إلى جميع أهل الشارع ليبارك ويهنئ الشيخ إبراهيم بعودة ابنه محمد.

وبعد أن مرت لحظات اللقاء الأول وانتهت ساعات التهنئة، والتى نسى فيها محمد نفسه والتى أنسته أنه كان بصحبته الحاج كامل، والذى كان بمثابة أب آخر له لمدة ثلاث سنوات، فأسرع إليه محمد بعد أن أحس أنه أخطأ فى حقه.

ولكن الحاج كامل يدرك أن محمدًا لا يمكن أن يتجاهله قط، ولكنها الفرحة والتى أنسته كل شيء بل إن الحاج كامل نفسه أخذ يؤنب نفسه على أنه لم يرسل إلى أهل محمد خطابًا واحدًا يطمئنهم فيه على ابنهم الوحيد ولكن عزاءه الوحيد أن تلك هى كانت رغبة محمد، ثم يأخذ محمد الحاج كامل من يده ويقف به أمام أبيه ويقول له: «أما هذا الرجل الطيب فهو الحاج كامل الذى كان بمثابة الأب الثانى لابنك فى سنين غربته الطويلة»..

فإذا بالشيخ إبراهيم والد محمد يحتضنه ويقول له: «لا أدرى ماذا أفعل لك، فلو أمكننى أن أقوم من على كرسى هذا لقبلت قدميك بل والأرض من تحتك على ما فعلته مع ابنى والذى لم أعرفه بعد، غير أننى أراه فى وجه ولدى وكذا أراه فى وجهك الصالح، فمثل وجهك لا يكون إلا لرجل خير».. ثم جلسوا يتبادلون جميعًا أطراف الحديث..

وقضى الحاج كامل معهم ليلةً من الفرح عرف فيها الأب وابنته أنين طعم السعادة بعد أن هجرتهم لمدة ثلاث سنوات كما علم فيها الصبى بوفاة زوجة أبيه، لكنه لم يعرف كيف ماتت ولم يدرى كيف مرت تلك السنوات الصعاب على أبيه وأخته..

قضوا جميعًا ليلةً كانوا يتمنوا ألا يطلع لها فجرًا ما عدا الحاج كامل هو الوحيد الذى كان ينتظر بزوغ الفجر بفارغ الصبر حتى يعود إلى ابنته ليكون بجوارها، ويخفف عنها لأنه يعلم مقدار حبها لمحمد..

وها هو الصباح يأتى مسرعًا ويعود الحاج كامل إلى زوجته وابنته

بعد أن أدى الأمانة إلى أهلها، وبعد أن وعد الحاج كامل والد محمد بأنه سوف يأتى هو وزوجته وابنته فى زيارة قريبة له.

وعاد محمد إلى بيته بعد أن ودعه فى محطة القطار مرةً أخرى.. عاد ليجلس مع أبيه وأخته ليعلم منهم ماذا فعلت بهم الأيام فى سنين غربته، وبعد أن قص عليهم هو ما حدث له منذ أن ترك المنزل إلى أن عاد إليه، وإذا بالدموع تنهمر من وجه أبيه معتذرًا إليه عما حدث له من زوجته، وأخبره أن ذلك كله كان دون علم منه بالحقيقة، ثم أخبره محمد بما حققه من نجاح..

وها هى الأيام تبتسم لهم من جديد، ثم يجلس محمد مع أخته بعد أن ذهب أبوه لينام فى حجرته، ولكن هيهات أن ينام فظل يصلى ويشكر اللّه عز وجل فى حين أن محمد يستمع إلى أخته ما حدث لهم، ويعلم منها كيف ماتت زوجة أبيه..

وها هى أنين تحكى لأخيها وكأنها تزيح عن صدرها جبلًا من الهم حملته تلك الأيام الطوال، فتقول: «بعد أن خرجت من المنزل جلس أبوك ينتظر عودتك، ولكن دون جدوى فلم يغمض لنا جفن فى تلك الليلة، وخرجت فى الصباح كى أسأل عنك كل أصدقاءك، فلم يدلنى أحد على مكانك، فرجعت إلى أبى تسبقنى دموعي، فظل أبوك يبكى بكاءً مريرًا أيامًا وليالٍ طويلة زادت فيه قسوة زوجته علينا حتى جاءت الليلة الفاصلة والتى ثار فيها أبوك على زوجته وارتفع صوته وأخذ يتهمها فى أنها السبب فيما آلت إليه الأمور، وأنها لن تبقى فى

هذا البيت دقيقةً من بعدك، وبالفعل طلقها وخرجت من البيت بعد أن أخذت منا كل ما نملك من مال وحلي، وأخذت حالة أبيك تسوء يومًا بعد يوم..

وبعد أن مضى على غيابك عام عشنا فيه سويًّا أنا وأباك أشد لحظات الحزن والعذاب، ولم تكن أخبار زوجته تخفى علينا، فقد علمنا أنها قد هاجمها كلب ضال، فتمكن منها ولبخلها وحرصها على الدنيا لم تعرض نفسها على طبيب، وأُصيبت بمرض السعار والذى تمكن منها فأخذت تهلوس وتنهش من يقترب منها حتى أنها كانت تهيم فى شوارع القرية على وجهها..

وأخذ الناس يرددون أن هذا هو انتقام الله منها، وأن ما يحث لها سببه الوحيد ما اقترفته من آثام فى حقنا، وظلت هكذا حتى عُثر عليها متوفاةً فى أحد الحقول، فحملها أهل القرية وقاموا بغسلها ودفنها وكل منهم ينظر إلى الآخر، وكأنهم يريدون أن يقولوا هذا هو ذنب محمد.. ثم تنظر أنين إلى أخيها، فإذا به يملأ الدمع وجهه ثم يقول: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾.. ثم يقول: «اللهم اغفر لها وارحمها»..

وتقول له أخته: «أتطلب لها الرحمة بعد كل ما فعلته بنا وبك»، فيقول محمد: «ولم لا.. لقد تعلمت من الحاج كامل وأسرته معنى العفو عند المقدرة».. ثم طلب منها أن تكمل له ما حدث لهم بعد ذلك فقالت: «لقد زاد المرض على أبيك وتدهورت صحته، وأخذت تسوء صحته يومًا بعد يوم، ولكنه لم يفقد الأمل فى عودته حتى أنه

يومًا رفع يده إلى السماء وهو يقول: «اللهم إنى لا أسألك رد القضاء، ولكنى أسألك اللطف فيه، اللهم إن كان ولدى قد مات فألحقنى به على خير فى مستقر رحمتك، وإن كان ما زال على قيد الحياة فرده إلى ومد لى فى عمرى حتى أراه».. وكان دائمًا يجلس فى حجرته بين كتبه، ويلقى بنفسه معهم بين سطورهم حتى يغلبه النوم وهو يقرأ، ولما زاد عليه مرضه أخذ يعذب نفسه بعجزه ثم قال: «ألست من أبطال حرب أكتوبر المجيدة؟ أليس أخى من أبطال الحرب؟ بل أليس أبى أيضًا من ضحايا الحرب؟ والذى مات حزنًا على أخي.. ألم نخرج جميعًا ونحن نحمل أرواحنا على أكفنا لندافع عن هذا الوطن وعن هؤلاء الناس الذين يعيشون مع أبناءهم فى سعادة».. فقلت له: «نعم يا أبي؛ هذا كله صحيح»..

فقال لي: «يا ابنتى بما أن كل هذا صحيح فلما لم يمد إلى أحد يد المساعدة فى البحث عن ابني.. ألا أستحق منهم بعض العناء»، ثم قال: «ماذا أقول لأمك عندما ألقاها وعندما تسألنى ماذا فعلت بكم.. أأقول لها إننى ضيعتكم؟ أم أقول لها إننى تزوجت كى أحافظ عليكم فإذا بكم تضيعون مني».. ثم ينهى حديثه هذا بالبكاء، وتأنيب الضمير.. وهكذا كانت تمر علينا الأيام عذابًا ودموعًا، ولم يكن يسأل عنا أحد من أهل القرية سوى الشيخ أحمد، وهو الذى كان دائمًا يأخذ أباك إلى المسجد..

وهكذا مرت بنا الأيام والسنون حتى عدت إلينا، وعادت معك البسمة إلى قلوبنا والفرحة إلى بيتنا، وعادت من جديد لتعوضنا عن

سنوات الحرمان التى عشناها، وعدت إلينا ناجحًا متفوقًا منتصرًا على الأيام بالعلم.. فإذا بمجمد يحتضن أخته فى حنان ويعتذر إليها عما حدث لهم فى غيبته ويعاهدها بأنه سوف يبذل قصارى جهده حتى يعوضهم عن تلك السنوات الثلاث..

ثم يدخل إلى حجرة أبيه ويركع عند قدميه ليقبلها، ويطلب منه أن يسامحه على ما سببه له من آلام، ثم تنهى أنين هذه اللحظات الحزينة بقولها: «حدثنا عن الحاج كامل وأسرته»..

فيقول محمد: «الحاج كامل؟ ماذا أقول عنه، فلو أننى جلست معكم هذا الليل بطوله ومن وراءه ليال طويلة كى أصف لكم ما تتمتع به هذه الأسرة من أخلاق وصفات حميدة ما أعطيتهم حقهم، كما أننى لو حدثتكم عن ابنته لاحتاج ذلك منى إلى سنوات بقدر تلك السنوات التى عشتها معهم، ولم لا؛ فإنهم أكبر من أى وصف وأعظم من أى تشبيه، ولكم أتمنى أن يشاء القدر أن تكون زيارتهم قريبةً حتى ترونهم بأعينكم لأننى مهما وصفت سوف يعجز وصفى عن الحقيقة»..

# (بناء ورثاء)

وهكذا مرت أيام ومحمد ليس له حديث مع أخته إلا عن الحاج كامل وأسرته؛ والذى جاء إليهم بعد حوالى أسبوعين تقريبًا ليحملوا إليه دعوةً من المحافظة بحفل تكريم الأوائل وإنه يدعوهم لقضاء أسبوع فى بيه قبل موعد الحفل.. فإذا بالحاج إبراهيم يلبى طلب ابنه ويتم سعادة ابنه، ويطلب من الحاج كامل يد ابنته عزة، فأخبره الحاج كامل أنه قد خطب محمد لابنته عزة من قبل أن يعرف أهله.. أما الآن فهو أشد الناس حرصًا على أن يكون زوج ابنته فى يوم ما، وقد أخذوا قرارهم أن تكون الشبكة يوم تكريم الأوائل.. أى تكون حفلة التكريم التى تقيمها المحافظة هى نفسها حفلة الخطوبة..

وبالفعل سافر محمد وأسرته إلى بيت الحاج كامل قبل موعد الحفل بأسبوع، وعندما عاد محمد إلى بيته الثانى أخذته الحاجة زينب فى أحضانها بلهفة الأم التى اشتاقت إلى عودة ابنها الوحيد، وكذلك كانت عزة فى قمة سعادتها وكأن قلبها عاد إلى ضلوعها،

وعندما شاهد الشيخ إبراهيم تلك المقابلة علم أن ابنه كان فى مأمن مع هؤلاء الناس، ثم توجهت عزة إلى أنين تحتضنها وكأنها أختها ثم قالت: «أنت أجمل بكثير من الوصف الذى وصفه لى محمد».. فقالت أنين: «أنا الآن فى قمة سعادتى لأن خطيبة أخى آية فى الجمال، وأنها بنت ناس طيبين، فأخى طيب ويستحق كل خير». ثم ذهبوا جميعًا لشراء الشبكة بالمبلغ الذى أخذه الصبى من الحاج كامل.. كذلك أصر الحاج كامل أن تكون بدلة العريس وفستان الشبكة على نفقته الخاصة فهما أبناؤه..

ومر الأسبوع وكانت حفلة التكريم، وكان ذلك اليوم أسعد يوم فى حياة الصبي، وشعر آنذاك أن الدنيا عادت تبتسم له من جديد.. ولم يكن يعلم أن هذه آخر بسمة له فى الدنيا.. وانتهت الحفلة.. ومر يومان وعاد محمد بأهله إلى قريتهم..

ومرت الأيام والتحق محمد وعزة بكلية التربية الشعبة الزراعية.. وكان الاثنان فى قسم واحد هو قسم الإنتاج النباتي.. كما عادت أنين إلى الدراسة من جديد ومضى العام الدراسى فى سعادة وحب، ولكن محمد وضع فى اعتباره أنه لن يعطى نفسه أكثر من حقها، فبرغم خطبته لعزة، إلا أنه لم يسمح لنفسه بلمس يدها ولو عن طريق الخطأ.. فإنه يحفظ كتاب الله ويعلم حق أهلها عليه.. وكانا محسودين من زملائهم على ذلك الحب الملائكى الذى غاب من عالم البشر واندثر فى زحمة الحياة.

وانتهت الامتحانات وطلب محمد من الحاج كامل أن يسافر إلى

الأردن لكى يعمل هناك فترة الصيف كما يفعل زملاؤه، ولكن الأب لن يتحمل فراقه مرةً أخرى. ولكن محمد أخذ يقنع أباه أن هذا سوف يساعده فى ادخار مبلغ كبير من المال، وأخيرًا وافق الأب وسافر محمد للعمل فى الأردن بعد أن ودع أسرتيه.. وكان العمل هناك شاقًّا، فلقد عمل فى مصنع للطوب الإسمنتى لكنه كان يتحمل مشقة العمل فى سعادة..

وبعد أن مضى أسبوعان من سفره أرسلت عزة إليه تخبره بأن النتيجة ظهرت وأنه هو الأول على الدفعة بتقدير جيد جدًّا، وأنها نجحت بتقدير جيد، وأخبرته أن الدراسة سوف تبدأ فى ١٩٩٢/٩/١٧م، ففرح محمد بنجاحه وقرر أن يستمر فى عمله حتى نهاية شهر أكتوبر، ثم يعود إلى مصر..

ومرت الأيام إلى أن جاء اليوم المعلوم الذى وقع فيه الزلزال الذى حدث بمصر.. علم محمد بذلك من أجهزة الإعلام.. فزاد قلقه على أسرتيه ولكن ماذا يفعل؟ وكان الزلزال قد دمر بيت أبيه وماتت أخته تحت أنقاض المنزل.. فذهب الحاج كامل ليجد الشيخ إبراهيم فى المستشفى ويرى ابنته أنين فى عداد الموتى فماذا يفعل؟ هل يخبر محمدًا بخطاب ليعود.. وما إن مر أسبوع حتى أرسل محمد خطابًا يقول فيه أنه سوف يعود إلى مصر يوم ١٠/٢٩.. وكان الزلزال قد حدث يوم ١٠/١٢ فى تمام الساعة ٣,١٥ أثناء صلاة العصر..

وعاد محمد وكان معه مبلغ ٢٠٠٠ جنيه ادخرها من عمله.. وكان سعيدًا لأنه سوف يرى أسرتيه من جديد.. وكانت الطامة عندما

وصل إلى قريته.. فهذه ليست قريته التى تركها منذ ٤ شهور فلقد تغيرت معالمها بعد أن انهار عدد كبير من البيوت، وخيم الحزن على أهالى القرية بسبب كثرة الضحايا.. وعندما وصل محمد إلى بيتهم وجده قد انهار، فأخذ يسأل فى لهفة.. «أين أبي؟ أين أختي؟ هل هما بخير؟».. فأخبره أهل القرية أن أباه فى المستشفى ولم يجرؤ أحد على إخباره بما حدث لأخته الوحيدة.. وأخبروه أن أخته فى المستشفى مع أبيه.. فهرول حتى وصل إلى المستشفى، وهناك وجد عددًا كبيرًا من أهالى القرية، فسأل عن أبيه حتى وصل إليه فوجد الحاج كامل إلى جواره فارتمى فى حضن أبيه يقبله فإذا بالدموع تنهمر من عينيه، فأحس محمد أن شيئًا ما حدث لأخته وإن لم يكن يتوقع أبدًا أن أخته انتقلت إلى جوار ربها فسأل أباه: «أين أنين؟ أين أختي؟»..

ولكن بماذا يجيب الأب فهو لا يجد كلمات.. وإن وُجِدت الكلمات، فأين له بالشجاعة؟ فزاد بكاء الأب، فشعر محمد بأن ما لم يتوقعه قد حدث، فأخذ يصرخ فى المستشفى: «لا.. لا.. مستحيل».. فهزت صرخاته قلوب الموجودين فى المستشفى.. فبكى الجميع.. ولكن محمدًا ما زال يشعر وكأنه يحلم.. فمضى يصرخ فى كل الحاضرين: «أين أختي؟ أين أنين؟».. ولكن لا يجد إجابةً على سؤاله غير الدموع، فعلم تمام العلم أنها حقيقة، وإذا بالحاج كامل يقف إلى جواره ويطلب منه أن يستغفر الله، ويعود إلى كتاب الله فسوف يجد فيه آيةً تقول: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِى بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ... ﴾..

فإذا بالصبى يهدأ ويبكى فى صمت ثم يسأل أباه: «كيف ماتت

أنين؟»، فقال الأب: «جاء الحاج أحمد ليأخذنى إلى المسجد كما تعود لنصلى العصر.. وكانت أنين نائمةً فى حجرتها، فلم أبغِ إزعاجها، فتركتها كما هى نائمة وخرجت مع الحاج أحمد، وبينما نحن فى صلاة العصر فإذا بصرخات تهز المسجد، فترك الجميع صلاة العصر.. حيث حدث وقتها الزلزال وهربوا من المسجد، وبقيت أنا وحدى لعدم مقدرتى على الحركة وبعد الصلاة أخذنى الحاج أحمد ليعود بى إلى المنزل فإذا به انهار فأخذت أصرخ: ابنتي.. ابنتي.. فدخل الناس وأخرجوها من تحت أنقاض البيت وهى فى عداد الموتى.. فلم أقوى على احتمال المنظر فلم أشعر بنفسى إلا هنا فى المستشفى».. فزاد بكاء الصبى على تلك الموتة التى ماتت بها أخته، ثم أسرع إلى قبرها يودعها ويشكو إليها نار فراقها، وبما كان يحمله لها من خير وحب، ثم قال لها: «لقد رحلت عنك لأعود إليك ولكنك تركتنى ورحلت بدون عودة.. فلم يا رب لا تأخذنى معها لكى أراها.. ثم يذهب إلى حطام البيت، ويجلس عليه وينادى أخته وأباه فلا مجيب له، فيمسك قلمًا ويكتب قصيدة رثاء يصور فيها حال القرية وشدة حبه لأخته، وكأنها حبيبته التى يعشقها فقال فيها:

زلزال فى القلوب
فى وسط دقات القلوب
حسيت بهزة فى الجسد
بصيت لقيت الناس بتجري
وكأنهم لمحو أسد

والدنيا كانت تايهه بينا
وشبكه ايدها بين أيدينا
فى وسط دقات القلوب
دقات تخلى الناس بتعرف
إيه الأمانى والتمني
هزات تخلى الناس بتشهد
بالحق دايمًا ع التجني
دقات تقول ع الناس دي
أصرخ وكأنهم حته مني
فى وسط دقات القلوب
هزات تخلى بيوت بتنزل
وقلوب بتنزف من الأنين
هزات تخلى أنين تموت
والناس بحالهم مشغولين
هزات تموت أطفال ضعاف
تحت السلالم وفى المدارس مقتولين
هزات تخلى الناس بتسأل
هى النجاة من حظ مين
فى وسط دقات القلوب
حسيت بصوتك بينادينى

حسيت بدمعك فوق جبيني
حسيت بشوقك وبحنيني
حسيت بظلم لو تتركيني
حسيت بقلبك بين ضلوعي
نورت شمسك من شموعي
ولقيت جسور المستحيل
رسمة طريقى وخطوتي
وتقولى امشى الألف ميل
ودتنى أجفف دمعتي
فى وسط دقات القلوب
حسيت بأختى وبصديقي
جريو فى طريق تانى غير طريقي
وبأعلى صوت ناديت عليهم
علشان تكون ايدى فى ايدهم
وبكلمة واحدة عرفوني
أن طريقهم غير طريقي
حسيت بأن دى النهاية
والموت نصيبى بدون حبيبي

وبعد أن أنهى قصيدته أخذ يبكى بشدة ثم انطلق إلى أبيه.. فإن كان القدر قد اختار أخته، فعليه أن يحافظ على ما بقى له فى هذه الدنيا..

ومرت الأيام وقد عاد البيت كما كان، ولكن هيهات أن تعود أنين.. لقد رحلت بلا عودة، وعاد الأب من جديد يدفن نفسه مع ما بقى له من كتب، ولكن فى هذه المرة لا ينتظر عودة أحد بل ينتظر زيارة ملك الموت له. فقد اشتاق إلى رؤية أبيه وأخيه وزوجته وابنته.. كل هؤلاء قد رحلوا عنه وتركوه يتعذب برحيلهم عنه.

# (عودة الأنين)

وكان محمد قد عاد إلى دراسته بعد انقطاع طويل، ولكن عزة كانت تكتب له كل شيء وكأنه موجود.. وكان محمد يكابد الآلام والنصب من رعاية أبيه وأداء واجباته كطالب جامعي.. وكان محمد يدفن أحزانه فى المذاكرة تارةً وفى كتابة الشعر تارةً أخرى.. ونمت موهبة الشعر لديه.. فكما أن الحاجة هى أم الاختراع فإن الأحزان أو الأفراح الدفينة فى قلب إنسان هى أساس الموهبة والشعر، وكان فى قلب محمد من الأحزان ما يجعله شاعرًا ممتازًا فمضى يكتب شعره وقصائده فى مجلات الحائط بالكلية، وفى ذات مرة أخبرته عزة بسعادتها بذلك، ثم قالت له: «لعل هذا ينسيك أحزانك». فإذا بمحمد يقول: «وكيف لى بالنسيان وهى تعيش معي.. فى قلبي.. فى صوتي.. فى نظرات عيني.. لقد كتبت الأحزان فى قدرى وهى جزء منى وعليها يسير منهاج حياتى فليس لى منها مهرب ولن تتركنى حتى أموت»..

ومرت الأيام وانتهى العام الدراسى وبدأت الأجازة، ولكن ماذا يفعل محمد هذا المسكين.. هل يخرج يبحث عن عمل ويترك أباه العاجز أم يرضى بأن يكون عاجزًا ويبقى لخدمة أبيه.. وبالفعل قد أخذ قراره لصالح أبيه، ورضى بأن يدفن نفسه مع أبيه بين الكتب.. ومرت الأيام ونجح بتقدير عام جيد، وكذلك عزة والتى كانت رسائلها لا تنقطع أبدًا.. ومرت الأجازة بعد أن أخذت معها أيامًا قضتها مع شخص عاجز لعجز أبيه.

وجاء العام الدراسى الجديد ومعه نصيب الصبى من الأحزان.. فلقد مرض أبوه مرضًا شديدًا ونقله محمد إلى المستشفى والتى كانت نفقاتها فوق طاقته فبدأ فى بيع كل شيء فى المنزل فلم يبق به شيء سوى مكتبة أبيه، والتى قضى فيها أغلب حياته، وكانت تضم أكثر من ألفى كتاب.. فقرر أن يبيعها فهو على أتم الاستعداد أن يبيع نفسه من أجل أن يشفى أبوه ليبقى معه.. ولم تُبَع المكتبة إلا بمبلغ ٥٠٠ جنيه لا تكفى لأسبوع واحد فى المستشفى.. وبعد كل هذا العذاب قرر الأطباء للصبى أن أباه لا بد وأن ينتقل إلى معهد الكبد.. وعلمت عزه بذلك، فأخبرت والديها وذهبوا لزيارة الشيخ إبراهيم وهناك وجدوا الصبى وقد أعياه السهر وهزمه الحزن وعلمت عزة بما حدث بأنه قد باع كل ما يملك وأنه لم يبق معه سوى مبلغ ضئيل، فأشارت على والديها أن تبيع شبكتها وتعطى ثمنها لمحمد فوافق الوالدان على ذلك، وخرجت عزة مع أمها لتعود بالنقود، ولكن محمد يرفض ذلك.. ولكن هذا أبوه وتلك هى حياته وأخذ محمد النقود مضطرًا..

ومر أسبوعان على أبيه.. ولكن لا يظهر عليه أى تحسن.. وكان محمد يجلس مرافقًا لأبيه فى المستشفى، وكان يرى يوميًّا عشرات الموتى فى هذا المعهد المشؤوم..

وفى ذات ليلة كان محمد يذاكر ورأسه بجوار أبيه فإذا به يسمع صوت مريض يطلب المساعدة فتوجه فورًا إلى الممرضة كى تطلب الطبيب.. ولكن هيهات أن تستجيب الممرضة أو أن يستجيب الطبيب لإغاثة ملهوف، فأسرع محمد إلى المريض.. ولكن ماذا يفعل له.. فهو لا يمكنه عمل شيء، فإذا بالرجل ينطق قائلًا: «سامح الله أولادي».. ثم أخذ يقص حكايته.. فعلم محمد أنه رجل غنى أحضره أولاده إلى هنا، وتركوه من أجل المال.. فتعجب محمد: أى صنف من الأولاد هؤلاء، فهو يبيع الدنيا من أجل أبيه، وهم يبيعون أباهم من أجل المال وما إن انتهى الرجل من حكايته حتى انتقلت روحه إلى الرفيق الأعلى.. فرجع محمد إلى الممرضة مسرعًا فأخبرها بما حدث فإذا بها فى برود متناهٍ، تذهب معه وتغطى وجهه ثم تتركه وتذهب، فدهش محمد ألا يحرك موت هذا الرجل هذه الممرضة كإنسانة على الأقل.. ولكن ماذا فى يده؟ فهو لا يملك شيئًا، فجلس بجوار أبيه، ولكن هيهات أن يأتيه النوم فظل مستيقظًا حتى طلع عليه الصبح، وعادت المستشفى تعج بأصوات القادمين إلى المعهد من المرضى وأصوات الباكين على الموتى الخارجين من المعهد، وجاء الابن الأكبر لذاك الرجل الذى مات بالأمس، فأسرع محمد يخبره بما حدث لعله يشكو الطبيب والممرضة، ولكن هيهات أن تُزَاح غشاوة المال عن عينيه، فلم

ينتبه الرجل إلى حديث محمد.. ثم قام بإعطاء المرضة مبلغ ١٠٠ جنيه نظير رعايتها لأبيه.. فزادت دهشة الصبى أنها لم تفعل شيئًا.. ولكن ماذا يقول وماذا يفعل؟ ليس أمامه إلا أن يجلس بجوار أبيه لعله يحتاج إلى شيء.

ومرت الأيام ونفذ ما معه من مال.. وكان الدفع فى المعهد مقدمًا، ولم يبق فى مدته غير يوم واحد.. فذهب إلى مدير المعهد يستعطفه أن يبقى أبوه حتى يأتى الله بفرجه فرفض.. فإذا بمحمد يصرخ: «أليس أبى من أبطال حرب أكتوبر؟ ألم يضحى بنفسه من أجلك ومن أجل هذا الوطن؟ ألا يستحق منكم أن تعالجوه على نفقة الدولة.. فإذا بالطبيب يقول له: «لا وقت عندى لمثل هذه التفاهات.. فاذهب إلى منهم من أثرياء الحرب وأخبرهم بذلك لعل أحدًا منهم يسمعك.. أما أنا فلا يخصنى إلا حق المستشفى، أما حق أبيك فليس من شأني».

فإذا الصبى يعود إلى أبيه بعين باكية، فهو لا يملك شيئًا سوى البكاء.. فبينما هو غارق فى دموعه جاءته ممرضة طيبة وجلست معه وأرادت أن تهون عليه، فقالت له: «لا تحزن كل هذا الحزن».. قال: «وكيف لا أحزن وأبى سوف يخرج من هنا وهو ما زال مريضًا.. وقد يموت مني».. فقالت له: «وإن بقى هنا فسوف يموت أيضًا».. فقال: «كيف؟».. قالت: «هل فعلوا مع أبيك شيئًا منذ أن جاء إلى هنا سوى إعطائه البرشام والحقن».. قال: «لا!».. قالت: «وهكذا يفعلون مع كل المرضى».. فقال لها: «ولما هذا؟».. قالت: «لأن هذا المعهد يتبع كلية الطب.. فهو حقل تجارب لطلبة الكلية.. ومن أجل ذلك فجميع

المستشفيات ترسل الحالات الميؤوس من علاجها إلى هنا»..

فإذا بهذه الحقيقة تنزل على محمد وكأنها الصاعقة، فلقد علم أن شفاء أبيه ميؤوس منه.. ولكن ماذا يفعل؟ فالأمل فى شفائه ما زال فى قلبه.. ولكن الممرضة نصحته أن يخرج بأبيه ولا يكلف نفسه نفقات أخرى.. وأن فى هذا راحة لأبيه، لأن من الأحسن له أن يموت على فراشه فى وسط أهله.. فإذا بمحمد يبكي.. فأين له بفراشه الذى يموت عليه؟ فلقد باع كل شيء.. وأين له بالأهل ليموت بينهم.. لقد رحلوا جميعًا.. لم يبق سوى هو.. فأحست الفتاة بأنها أخطأت، فأبدت له الاعتذار.. ولكنه اقتنع بحديثها، فهو لم ير سوى جثث الموتى منذ أن قدم إلى هنا.. ولكن كيف يخبر أباه؟ كيف يقتل عنده الأمل فى الحياة؟ ودخل على أبيه والدموع فى مقلتيه، فإذا بأبيه يطلب منه العودة إلى البيت لأنه لم يعد يطيق هذه المستشفى..

فإذا بالابن يشعر وكأن أباه كان يسمع تحاوره مع الممرضة فعاد يطلب من أبيه أن يبقى وأنه سوف يتصرف حتى لو كانت حياته هى الثمن، ولكن الأب متمسك برأيه، فلقد اشتاق إلى بيته، وبالفعل عاد الرجل إلى منزله وعاد معه.. وكان حزن الأب على ولده لا يقدر عندما علم أنه باع كل شيء فى المنزل من أجل علاجه، ولم يبق لنفسه شيئًا حتى فراشه الذى ينام عليه ليس ملكًا له.. فلقد اقترضه له الابن من أحد الجيران لينام عليه أبوه.. فنعم الابن هو ويا لا القدر!!

ومرت أيام وليال.. وفى ذات ليلة اشتد المرض على الأب وأخذ يتحدث مع ولده كثيرًا؛ فقال له: «لقد اشتقت إلى أبى وأمى وأختى

وأمك وأختك.. لقد وحشونى كثيرًا وإنى أشعر أنهم اشتاقوا إلى فنادوني».. فقال محمد لأبيه: «تريد أن تذهب إليهم وتتركونى جميعًا وحدى أعيش الحزن وأكابده».. ثم رفع عينيه إلى السماء وهو يقول: «يا رب ألا يوجد فى هذا الكون غيري.. ليس بى طاقة على تحمل هذا الحزن»..

ثم عاد أبوه يتكلم فقال: «كم كنت أتمنى أن أكون شهيدًا».. ثم قال لولده: «هل تعلم الفرق بينى وبين عمك؟».. فقال محمد: «كلاكما بطل!».. فقال الأب: «لا؛ إن عمك مات شهيدًا على أرضه فداء وطنه، فكان عند الله من الأحياء.. أما أنا فأموت هنا على فراش ليس ملكي».. فقال محمد: «وهذا خير.. فسوف تُحْشَر فى زمرة المساكين، فلقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلب من الله أن يعيش مسكينًا ويموت مسكينًا وأن يُحْشَر فى زمرة المساكين، وها أنت ذا نلت دعوته»..

فقال الأب: «إن ما يحز فى نفسى ويؤثر فيها هو أننى سوف أتركك وحيدًا لا تملك شيئًا من حطام الدنيا». قال محمد لأبيه: «لا تقل هذا، فلقد تركت لى الكثير الذى لا يُقَدر بمال فعمى شهيد من شهداء أكتوبر، وأبى بطل من أبطالها.. أليس هذا أفضل من كنوز العالم بأسرها».. فبكى الأب ثم قال: «حتى هذه الأشياء لم تعد تساوى عند الناس شيئًا».. ثم زاد بكاؤه وقال: «لو أنها تساوى عند الناس شيئًا لما قتلوا زعيمهم يوم عرسه.. فقال محمد: «من تقصد؟».. فقال الأب: «وهل هناك زعيم غيره؟! إنه الرئيس السادات الذى صنع النصر لنا

وأعاد لنا الحرية والكرامة».. فقال محمد: «وهل كان يتزوج يوم أن قتلوه؟».. قال الأب: «لقد كانت فرحته بهذا اليوم أكثر من فرحته بيوم زفافه.. لقد قتلوه يوم السادس من أكتوبر يوم احتفاله بعيد النصر.. فقال الابن: «هل كنت تحبه؟».. فقال الأب: «ومن كان لا يحبه أو يكرهه؟ (ثم قال) لقد كان يقول فى خطاب له: لقد عاهدنا الله أننا سوف نسلم تلك الأعلام إلى جيل سوف يأتى بعدنا.. سيرفعها عاليةً خفاقةً ترفرف فى سماء مصر، وقد تكون هذه الأعلام مخضبةً بالدماء، ولكنها سوف تكون حرةً. (ثم قال الأب) لم يكن يدرى يا ولدى أن هذه الدماء هى دماؤه التى سالت برصاص الغدر والخيانة، لو رأيت شموخه يوم مقتله يا ولدى بينما هرب الجميع لعلمت أنه لا زعيم غيره»..

قال الرجل هذا ثم أخذ ينفرط فى البكاء وهو يطلب الرحمة لهذا الزعيم الراحل، ثم عاد ليوصى ابنه أن لا يأمن غدر الدنيا ثم طلب من ابنه أن يقرأ له من سورة يس، فأخذ الابن يقرأ والأب يردد خلفه حتى وصل الابن إلى قوله تعالى: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾..

فتلاه الأب ثم قال: «صدق الله العظيم».. كفى يا محمد إلى لقاء ليس ببعيد قريب جدًّا إن شاء الله، ثم نطق الشهادة وهو يبتسم ثم قال: «لقد بدأت الرحلة وها أنا فى الطريق إلى من وحشوني».. قالها ثم مات.. صعدت الروح إلى خالقها..

فلم يصدق الابن، لقد كان يتحدث معه الآن، فأخذ الابن يصرخ..

ولكن هيهات أن يسمعه أبوه.. كانت الساعة الرابعة وأوشك الفجر أن يؤذن.. فقام الابن وتوضأ لصلاة الفجر وذهب إلى المسجد وأخذ يدعو لأبيه وبعد الصلاة.. أخبر المصلين بما حدث وبأنه لا يملك ثمن كفن أبيه.. يا لا قسوة القدر، ويا لا شدة إيمان هذا الصبي، فساهم الجميع لشراء كفن.. وذهب الابن ليتصل بالحاج كامل الذى أتى من فوره هو وأسرته وحضر الدفنة والعزاء.. وبعد أن انتهى كل شيء طلب الحاج كامل من محمد أن يرحل معهم فى الصباح وأن يعود للعيش معهم بدلًا من أن يبقى بمفرده، ولكن محمد رفض أن يذهب ويغلق بيت أبيه وحاول معه الحاج كامل فى ذلك كثيرًا.. لكن محمد كان قد اتخذ قراره.. ثم اقتربت منه عزة وطلبت منه أن يذهب إلى الدراسة لعلها تساعده فى الخروج من تلك الحالة فأخبرها بأنه سوف يذهب فى بداية الأسبوع القادم..

ورحل الجميع ولم يبق أحد سواه.. وكانت عزة قد رحلت وهى حزينة أشد الحزن على ما أصاب محمد.. فهو لم يعرف طعمًا للسعادة، وقد عزمت على أن لا تتخلى عنه أبدًا..

# (وحشة الفراق)

وعاد محمد ليحدث نفسه من جديد فلا يوجد فى البيت سوى الجدران، وأخذ الليل يسدل ستائره.. ودموع محمد لا تجف من على خده، وشعر محمد بالشوق إلى أهله.. أحس بالشوق إلى رؤياهم فانطلق إلى القبور فى ظلام الليل وجلس بجوار قبرهم وأخذ يتحدث إليهم وهو يبكي، ثم غلبه النوم من شدة التعب فنام.. فإذا به يراهم فى منامه يلتفون حوله وأخذ يتحدث مع أبيه ويتحاور معه، وظل محمد نائمًا من شدة التعب حتى طلعت عليه شمس الصباح، فاستيقظ من نومه ليجد نفسه فى القبور فأخذ يبحث عن أهله، لقد كانوا حوله لكنه تيقن أنها رؤيا فعاد إلى المنزل وأغلقه على نفسه، وأخذ يكتب ما دار بينه وبين أبيه من حوار.. فكتب أروع وأعظم قصيدة شعر فى حياته، ولقد أسماها قصيدة الرؤيا، وهى بعنوان العمل الخالد وهى فى صورة حوار بينه وبين أبيه وكتب فيها يقول:

العمل الخالد..

يا ظلمة ليلى من بعدك
يا لجة موجى فى بعدك
يا قرة عينى يا دمعى الساخن
يا زهرة بستانى العاري
يا عمرى الآتى وعمرى الفاني
فى ضوء القمر أرى عينيك
أراك تنادينى إن غبت عليك
فأجبيك يا أبتى لبيك
تحدثنى عن عالمكم ونعيم الله
وأحدثك عن عالمنا الذى نحياه
فأقول يا أبتى عالمنا أجمل
فتقول يا ولدى بل عالمنا أهدى وأجمل
فأقول يا أبتى عالمنا أوسع
ففيه البحر وفيه الصحراء
فتقول يا ولدى بل روضة جنة واحدة
أوسع من هذا العالم كله
فأقول يا أبتى فى عالمنا..
الناس تسير على الأرض
لكن عالمكم يا أبتى عالم أرواح
لكن عالمنا يا ولدي..
عالم خلود وبقاء إلى يوم البعث

أما عالمكم هذا فسوف يزول
نعم؛ فالحق يا أبتى والحق أقول
عالمكم أجمل
فلتمدد يدك لتأخذنى كى أسعد فيه
فتقول يا ولدى تزود.. ثم تغيب..
فأعد الزاد والليل يزول والقمر يغيب
ويطول غيابك ثم تعود
وفى ضوء القمر أرى عينيك
فتنادى على فأجيبك أبتى لبيك
فتقول أأعددت الزاد
فأجيبك الزاد كثير فتقول
لكنى يا ولدى لا أرى شيء
ها هو ذا يا أبتى أمامك فلتنظر فيه
فهذا طعام يكفينى لمسيرة عام
وشرابى كثير
وهذا ثيابى أبدلته فصار جديد
والمال وفير
فتراه وتسخر فأعجب منك
هل تسخر مني؟ فتجيب بل زادك هذا أسخر منه
تسخر من زادي. ولما؟ أقليل هو؟
فتقول يا ولدى إن جئت معنا فسوف يزول

فماذا أعد؟ أأكثر من هذا؟
فتقول يا ولدى أكثر بكثير
فماذا أعد.. ماذا أعد؟
خبرنى بالله عليك
أنقود العالم تكفينى فتجيب بلا
بل عمل الخير
فهو يبقى والكل يزول
فأجيبك: عمل الخير
سوف أعده.. ولكن كيف
كيف أعده
خبرنى بالله عليك
فتقول يا ولدي
لتصوم نهارك وتزكى بمالك والليل تقوم
فلسوف أعده.. سوف أعده
فلتمدد يدك لتأخذني.. اشتقت إليك
يا ولدى لا تعجل فالكل سيأتى فى دوره
وستأتى أنت..
فسأدفع رشوةً كى آتى إليك
أما الرشوة يا ولدي
فلا يقبلها قائد رحلتنا
ولا يدفعها من يأتى إلينا

فلتمدد يدك لتأخذنى اشتقت إليك
فتقول يا ولدى فلتبق لدورك وسيأتى إليك
ولتحسن زادك تقولها ثم تغيب
والليل يزول والقمر يغيب ويطول غيابك
فمتى بالله عليك أرى فى ضوء القمر عينيك
خبرنى بالله عليك
توقيع ابنك المشتاق إليك
..

وبعد أن انتهى محمد من قصيدته التى بين فيها شدة اشتياقه إلى أبيه.. أخذت الدموع تنهمر من عينيه..

ومرت الأيام وعاد محمد إلى دراسته بعد مضى شهر ونصف.. فأخذ يدفن حزنه فى المذاكرة، وكان لا يملك سوى معاش أبيه.. ومرت عليه الأيام، وضربت عزة أعظم مثال فى الوفاء والإخلاص فلا تتركه يحمل هذا الحمل وحده بل وقفت إلى جواره حتى استطاع أن يعبر حدود تلك الأحزان التى تطارده.

وعادت البسمة ترتسم من جديد على شفاه محمد.. ولكنها كانت مختلطةً بالدموع والأحزان، فهو لم ولن ينسى الدموع والأحزان.. فهو لم ولن ينسى أسرته التى لم يبق منها أحد غيره.. وكان كلما اشتاق إليهم ذهب إلى قبرهم وجلس ليتحدث معهم بالساعات..

وأخذت الأيام تمضى وتمر.. وبدأت الامتحانات.. وكان محمد موفقًا فيها بإذن الله.. وقرر أن يسافر إلى الأردن فى هذا العام

فلمن يبقى؟ لم يعد هناك من يخاف عليه من الوحدة كالعام الماضي، وسافر محمد ليهرب من أحزانه وآهاته الدفينة فى صدره، ولكنه مهما سافر وابتعد فهيهات أن يهرب من قدره الذى ينتظره فى أى مكان يرحل إليه..

لقد وصل إلى الأردن فى منتصف الليل فخرج من الميناء ليبحث عن مكان ينام فيه، ولكنه لا يعلم شيئًا فألقى حقيبته بجوار مسجد لينام حتى الصباح ليبحث عن عمل.. وبعد أن استغرق فى نومه استيقظ على ضربات فى جنبه يضربها له شاب فى جنبه بقدمه.. فإذا به يجلس فى مكانه، وإذا بهم ثلاثة من الشباب فسألوه عن هويته.. فقال أنا مصري..

فطلبوا منه أن يعطيهم ما معه من نقود.. فأجابهم: أن ما معه قليل يكفيه إلى أن يجد عملًا.. ولكن لا شأن لهم بذلك فانهالوا عليه ضربًا حتى أخذوا حقيبته وأخذوا يفتشوا فيها عن النقود ولكنه أخذ يقاومهم ويرد عليهم الضربات حتى طعنه أحدهم بمطواة فى جنبه فسقط على الأرض غارقًا فى دمائه قابضًا على حقيبته بيده.. وتركه الثلاثة وفروا هاربين فأخذ الصبى يلوح بيده، ويصرخ لعله يجد من يغيثه وإذا به يلقى بنفسه أمام سيارة تمر بالطريق فنزل من فيها وكانت سيدةً.. وإذا بها تصرخ عندما شاهدته سابحًا فى محيط من الدماء.. فهمت أن تتركه وترحل.. ولكنه أمسك بأقدامها وأخذ يقبلها وهو يرجوها أن تحمله إلى أقرب مستشفى فهزت كلماته قلب السيدة فأخذتها الشفقة به وحملته إلى المستشفى وهناك دخل

الصبى غرفة العمليات فور وصوله.. وظلت السيدة تنتظره حتى خرج منها سليمًا بعد أن تبرعت له بدمها، وجلست إلى جواره تنتظره حتى يفيق، وكانت عينها تدمع كلما تذكرت تلك الكلمات التى سمعتها منه، وكانت ترجو العفو من الله على غلظة قلبها..

وأشرقت شمس الصباح ولكن محمد لم يزل فى غيبوبته.. وما زالت السيدة تجلس إلى جواره تدعو له الله أن ينجيه، وما أن انتهت الساعات الأولى من شروق الشمس إلا وكانت شمس محمد تشرق إلى الدنيا من جديد وكانت أولى كلماته وداعًا يا أبي.. وداعًا يا أختي.. لقد نطق بتلك الكلمات وكأنه كان فى زيارة إليهم أو أنهم كانوا إلى جواره بأرواحهم يرجون له الشفاء ثم قال: «لقد كانوا إلى جواري».. فسألته السيدة: «من هم؟».. قال: «كان أبى على يمينى وأختى على يسارى وكانت الدموع تنهمر من عيونهم وعاتبتهم على رحيلهم بدوني».. فسألته السيدة: «من أى البلاد أنت؟».. فقال: «من مصر».. فقالت: «ولما جئت إلى هنا؟».. قال: «جئت لأعمل»..

وأخذت تتبادل معه الحوار حتى علمت منه أنه طالب وجاء يعمل فى فترة الأجازة.. ولكنها طلبت منه أن يخبر الشرطة فى تحقيقهم معه أنه جاء لزيارة خالته وأنها هى خالته حتى لا تعيده الشرطة إلى بلده بعد شفائه..

ومرت أيام قلائل وتماثل محمد للشفاء وكانت السيدة قد علمت كل شيء عن حياته فى مصر وكيف يحيا فى عذاب وهموم فأخذته ليعمل فى محل تجارى عندها..

ومرت الأجازة وكانت خطابات عزة لا تنقطع عنه وكذلك هو كان يكتب لهم دائمًا.. وبعد أن انتهت الأجازة وأنهى محمد عمله أعطته السيدة حسابه كما أعطته فستان الفرح لعروسه هديةً من عندها وعاد محمد فرحًا.. ومضى أسبوعان فى منزل الحاج كامل عرفت فيها الأسرة ما حدث له فى الأردن.. فإذا بالحاج كامل يقول له: «تسرنى قوة إيمانك بالله وعدم استسلامك لليأس وفقدانك الأمل فى الحياة، فكثرة مصائبك دليل على قوة إيمان كما قال صلى الله عليه وسلم: «إذا أحب الله عبدًا ابتلاه»..».. فقال محمد: «قد تكون كثرة الابتلاء تكفيرًا عن ذنوب ارتكبتها».. فقال الحاج كامل: «وهل لمثلك ذنوب؟»، فقال محمد: «إنى ارتكبت ذنبًا لن يغتفر يوم أن فكرت فى نفسى وتركت أبى وأختي».. فأرادت عزة أن تغير الموضوع، فقالت له: «ماذا تنوى هذا العام؟».. قال: «سوف أسكن فى المدينة الجامعية كباقى الطلبة، فأنا لم أعد أتحمل أعباء السفر»..

وانقضت الأيام التى قضاها فى الزقازيق ثم عاد إلى بيتهم مشتاقًا إلى أهله فذهب إلى قبرهم، وجلس معهم كما كان يفعل سابقًا ثم قام بشراء مستلزمات البيت من فرش وخلافه رغم أنه قرر السكن فى المدينة الجامعية إلا أنه كان يذهب إلى البيت يومى الخميس والجمعة ليقضيها مع أهله ومرت الأيام.. وزاد حب محمد لعزة وكذلك هي.. لقد أصبح محمد كل شيء فى حياتها.. ولكنهم لا يعلمون ماذا يحمل القدر لحبهم..

# (صهرى ظهري)

لقد مرض الحاج كامل فسافر محمد مع عزة ليرى أباها ومكث ثلاثة أيام حيث زاد المرض خلالها على الحاج كامل.. فطلب الحاج كامل منه أن يكتب خطابًا إلى أخيه فى الصعيد يطلبه فيه.. وبالفعل حضر سالم أخو الحاج كامل من الصعيد.. وكانت هذه هى أول مرة يرى فيه محمد سالم.. فقبل أن يجلس سأل سالم محمد: «من أنت؟».. فلم يجد محمد كلمات يجيب بها.. فوجه السؤال إلى الحاج كامل: «من هذا يا حاج؟».. فقال الحاج: «هذا ابني».. فقال: «أنا لم أعلم أن لك أبناء غير عزة التى لم أرها حتى الآن! فلم لم تخبرنى بأنك أنجبت ولدًا؟».. فقال الحاج كامل: «إنه خطيب ابنتى عزة». فنظر إليه سالم فى احتقار ثم قال: «ده خطيب بنتك؟».. فقال الحاج كامل: «وماذا به؟».. فقال سالم: «لا شيء.. (ثم نظر إلى محمد ثم قال له) ما اسمك، وما اسم عائلتك ومن أى البلاد أنت؟».. فأخبره محمد بما أراد.. ثم قال سالم: «ماذا يعمل أبوك؟».. فقال محمد: «لا يعمل».. فقال سالم: «عاطل يعني! فماذا تملك عائلتك؟»..

قال محمد: «أكثر مما تملك أنت».. فقال سالم: «وهل تعلم كم أملك أنا؟».. فقال محمد: «مهما يكن ملكك فهم يملكون أكثر منك». قال سالم: «فأين هم؟».. فقال محمد: «فى رحاب الله».. فقال سالم: «ماذا تعني؟».. قال محمد: «أعنى أنهم ماتوا».. فقال سالم: «ماتوا جميعًا؟».. قال محمد: «وهل من أحد سيبقى سوى الله».. فقال سالم: «أيوجد لهم وريث آخر غيرك؟».. فقال محمد: «نعم؛ كل مصرى يشاركنى ميراثي».. فتعجب سالم ثم قال لمحمد: «قل لى ماذا تملك؟».. فقال محمد: «لا شيء سوى الستر».. فثار سالم ثم قال لمحمد: «ألم تقل لى أن ملكهم أكثر من ملكي؟».. فقال محمد: «هكذا قال ربى وربك».. فقال سالم: «وماذا قال ربنا؟».. فقال محمد: «قال إن أقل ملك فى الجنة أكبر ١٠ مرات من كل ملك الدنيا».. فقال سالم: «فلما قلت إن كل مصرى شريك لك فى إرثك من أبيك؟».. فقال محمد: «إن أبى من أبطال حرب أكتوبر، ولقد ترك لى الحرية، وهى من حق كل مصري.. وبذلك فهم جميعًا شركاء معي». فأنهى سالم الحديث معه بعد أن عجز عن محاورته..

وكان الحاج كامل شديد الإعجاب بمحمد الذى لا يعجزه سؤال.. ومرت أيام قلائل وزاد المرض على الحاج كامل وتم نقله إلى المستشفى.. وفى ذات ليلة زاد المرض على الحاج كامل وكان معه محمد وأخوه سالم فطلب الحاج كامل أن يرى زوجته وابنته.. فهم محمد أن يذهب إليهم ليحضرهم.. ولكن سالم طلب منه أن يبقى، وذهب هو وكان قاسيًا فى إخبارهما.. لقد قال لهم: «إن أخى

يموت ويريد أن يراكم».. فخرجت الحاج وابنتها معه، وبينما هم فى الطريق أخبرها سالم بأن الحاج كامل سوف يُدْفَن فى الصعيد بجوار أمه.. أم حسبت أنك ستأخذينه منها فى الدنيا وتمنعيه من جوارها فى الآخرة؟».. فردت عليه عزة بقولها: «إن جدتى هى التى حرمت نفسها من كل شيء فى الدنيا والآخرة معًا.. ثم إن هذا الحديث يسبق ميعاده.. هذا بدلًا من أن تدعو لأبى بالشفاء تتحدث فى دفنه».

وعندما وصلوا إلى المستشفى كانت الدموع على خد الحاجة قد أخذت طريقها من خوفها على زوجها.. ومن ذلك الحديث الذى دار بينها وبين سالم.. ولم يكن محمد يعلم ما حدث فطمأنها على صحة الحاج.. ولكن عزة قصت عليه ما حدث.. فذهب إلى الحاج كامل واستأذن منه، ثم خرج إلى سالم واستأذنه فى الحديث..

فقال سالم: «ليس بينى وبينك كلام.. (ثم قال) كويس والله ما بقاش غير العيال تتدخل فى أمور الناس الشخصية».. فأجاب محمد: «نعم أنا أصغر منك فى السن ولكن الرجولة ليست بالسن فقط، ولكن بالعقل أيضًا».. فغضب سالم وصفع محمدًا على خده، فقال محمد: «والله لو قطعت جسدى كله ما تركتك تفعل ما يصبو إليه عقلك، وهو أن تفرق بين الحاج كامل وبين زوجته فى الآخرة لأنك لم تستطع فعل ذلك فى الدنيا.. وإن حدث ذلك فلا تظن أنك قد فرقت بينهم، فما القبر إلا حفرة يُوَارى فيها الجسد.. أما الأرواح فهى تتلاقى وتتعارف فى الآخرة وسيجمع الله بين أرواحهم حتى لو دفنته فى أخر بلاد العالم».. فهزت كلمات محمد سالم، فعلم أن خصمه عنيد وأن

إيمانه بالله قوى فتركه وذهب إلى أخيه، فذهب خلفه.. فإذا بعزة تلمح فى عينيه الدموع وإذا بالحاج كامل يدعوه ليجلس إلى جواره فذهب محمد وأمسك الحاج كامل بيده، ثم قال له: «عاهدنى أمام الله».. فقال محمد: «على أى شيء أعاهدك يا حاج؟».. فقال: «على ألا تترك زوجتى وابنتى وعلى ألا تتخلى عنهما مهما حدث، فأنا عشت طيلة عمرى أتمنى من الله الولد فرزقنى الله بك، فوالله لو أعطانى الله الولد لم أكن أتوقع أن يكون مثلك أو أن أحبه مثلما أحبك.. (ثم قال) وعلى أن تحمى زوجتى وابنتى مما تحمى نفسك منه، وعرضى فى مماتى كما فعلت فى حياتي».. فقال محمد والدموع على خده: «أعاهدك على كل ذلك»..

فقال الحاج: «وأنا أعلم أنك لن تخون العهد مهما حدث».. ثم نادى على ابنته وأمسك يدها ثم وضعها فى يد محمد، وقال لهما: لا تفترقا مهما حدث.. ثم طلب من زوجته أن تقترب منه فاقتربت فضمها إلى صدره، ثم قال: «ليعلم الله أنه لم يفرق بيننا إلا الموت».. ثم طلب من محمد أن يحافظ عليها لأنها أحبته كحبها لابنتها عزة، ثم سالت دموع الحاجة حتى نزلت على صدر الحاج، فقال لها: «ولم الدموع ونحن سوف نلتقى بعد عمر طويل لك».. فقالت: «ليتنى أموت قبلك».. فقال الحاج: «لو مت أنا أو أنت فلن يموت الحب حتى لو مات العالم كله.. فأبدًا لن يموت الحب».. ثم نطق بالشهادة واحتضن ابنته وزوجته وطلب من محمد أن يقرأ له القرآن، فأخذ محمد يتلو حتى فارقت روحه الحياة.. ولكنه قبل أن يغادرها حسم الأمر بين

أخيه وزوجته، فقد أوصى أن يُدْفَن فى الشرقية بجوار ابنته وزوجته وفى بلده التى قضى فيها عمره وعاش فيها أحسن أيام حياته، فبكى محمد وأخذت عزة تصرخ ثم رفع محمد عينيه إلى السماء قائلًا: «ماذا بينى وبين الدنيا؟ كلما ظننت أنها صفت لى وأنها سوف تبتسم أراها تغدر بى من جديد، وكأنها أخذت على نفسها عهدًا ألا تجعلنى أعرف معنى السعادة»..

ودُفِن الحاج كامل كما أراد وكما أرادت زوجته، وأُقِيم له الصوان.. ولكن رحل أخوه قبل أن يتلقى العزاء.. وجلس محمد فى الصوان وحده.. ومرت الليلة فعلم محمد أنه قد تحمل عبئًا ثقيلًا حيث ينبغى عليه أن يخرج عزة مما فيه من الحزن لكى تعود إلى الدراسة، حيث أنه لم يبق على الامتحان سوى أيام معدودة.. وهذا آخر عام لهم بالكلية، واستطاع محمد ونجح فى أن يخرجها من حزنها حيث أقنعها أن عجلة الحياة لا بد أن تستمر وأن البشر جميعهم مصيرهم إلى الموت، وأخبرها أن حزنه على الحاج كامل لا يقل على حزنها عليه، لقد كان أباه مثلما كان أباها.. ثم أخبرها أنه لا خلود لأحد ولو كُتِب الخلود لأحد من البشر لكان الرسول صلى الله عليه وسلم خير البشر جميعًا هو أحق الناس به، ثم تلى قول الحق سبحانه وتعالى لنبيه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾.. ثم قال محمد هذا كلام الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه..

# (الصراع المرير)

وبالفعل مرت الأيام وجاءت الامتحانات وكان محمد مع عهده مع الحاج كامل.. فبرغم ظروف الامتحانات القاسية إلا أنه لم ينس واجبه نحو الحاجة وابنتها عزة.. وانتهت الامتحانات وعاد محمد يقف فى المحل مرةً أخرى، وكان محمد يجلس مع الحاجة زينب وابنتها كل يوم من بعد صلاة المغرب ليقرؤوا القرآن على روح الأموات حتى صلاة العشاء كما كان يحفظهم كتاب الله.. وفى يوم ما جاء سالم والغضب فى عينيه ثم طلب أن يتحدث مع الحاجة وحدها، ولكنها أصرت أن يكون الحديث أمام الجميع فليس هناك أحد سوى أبناءها.. فقال سالم بصوت الشماتة وكأن الذى مات ليس أخاه قال: «أنت تعلمين أن أخى لم ينجب ذكورًا وبذلك يكون لنا نحن إخوته الحق فى أن نرث منه، ولكن من الممكن أن نتنازل عن حقنا هذا ولكن بشرط». فقال محمد: «وما هو؟»..

قال سالم: «لا دخل لك فى ذلك». فقالت الحاجة: «كيف وقد

أوصاه الحاج أن يرعانا وأن يحمينا مما يحمى منه نفسه». فقال سالم: «لن نختلف؛ فشرطى هو أن تتزوج عزة بنت أخى من أحد أولادي».. فإذا بالفتاة تصرخ: «هذا مستحيل».. فقالت الحاجة: «اهدئى يا ابنتى فهذا لن يحدث ولو أخذوا من حياتى وليس البيت فقط».. فقال سالم: «فى هذه الحالة سوف نأخذ حقنا الشرعى فى الميراث».. فقالت الحاجة: «أنت تعلم أن هذا البيت هو فى الأصل بيتى وأنا كتبته باسم الحاج حتى لا يشعر أن هناك فاصلًا بين ماله ومالي». فقال سالم: «المهم أنك كتبته (ثم قال) هذا موضوع يكاد يكون منتهيًا لأنه تحت حكم الشرع.. ولكن بقى موضوع آخر».. فقالت الحاجة: «ما هو؟».. فقال: «إنه يتعلق بخطيب ابنة أخى التى هى ابنتي».. فقالت عزة: «وما شأنك بذلك؟».. فقال سالم: «بل الشأن كله لي، فعلى هذا الصبى أن ينسى ما اتفق عليه مع أخي، فهو طيب ولم يعرف كيف يتعامل مع الناس ولم يكن يعرف مصلحته جيدًا وأكبر دليل على ذلك تلك الزيجة التى تزوجها»..

فطلب منه محمد أن يتكلم فى الموضوع دون أن يتعرض للحاج كامل.. فقال سالم: «إذا كنت تريد أن تتزوج عزة ابنتى فيجب أن تدفع عشرة آلاف جنيه شبكة ومهر هذا إن كانت عندك كرامة.. هذا إذا كنت تريد أن توفى بوصية الحاج كامل».. فقالت عزة: «وما دخل وصية أبى فى ذلك».. فقال سالم: «ألم يوصه بأن يحافظ على شرفه؟».. فقالت عزة: «لا أفهم شيئًا».

فقال سالم: «يا ابنتي؛ لو أنه تزوجك دون شبكة ودون أن يحضر

لك فرشًا جديدًا خاصةً وأنه سوف يقيم فى بيتكم.. كل هذا سيجعل الناس تظن بكم السوء، وأن هناك شيئًا ما بينكم حاولتم إخفاءه بتلك الزيجة»..

فإذا بالحاجة تصرخ فى وجهه: «أنت لا يمكن أن تكون إنسانًا».. فإذا به ينظر إلى محمد قائلًا له: «ما رأيك فى ذلك؟ طبعا موافق، إلا إذا كان النصب واستغلال الظروف من طباعك.. (ثم قال له) وقبل أن تقول رأيك لا بد أنك تعلم أنك لن تبق فى هذا البيت دقيقةً واحدةً، ولن تدخله بعد اليوم إلا ومعك ما أطلبه منك».. فقالت عزة: «لا تسمع لحديثه يا محمد فلا شأن له فى حياتي»..

وبرغم علم محمد بهدف سالم اللعين إلا أنه وافق على ذلك فقال سالم: «ليس أمامك سوى ٤ شهور».. قال ذلك ثم تركهم وخرج.. وهم محمد أن يجمع ما يخصه ويخرج، فقالت عزة: «هل ستوافقه، وأنت تعلم هدفه من كونه يريد أن ينفرد بنا حتى يأخذ منا ما يريد دون أن نجد من يقف إلى جوارنا؟».. فقال محمد: «لقد نزع الله من قلب عمك الإنسانية، فهو لا يتورع من فعل أى شيء، فقد يكون هو أول من يخبر الناس من أن هناك شيئًا نريد أن نخفيه وسوف يصدقه الناس لأنه عمك وأقرب الناس إليك فى نظرهم.. (ثم نظر إلى الحاجة وقال لها) أنت تعلمين ماذا أقصد، كما أنك تعرفين سالم أكثر منا».. فقالت: «نعم.. (ثم نظرت إلى ابنتها وقالت) إن حرص محمد على شرف أبيك وكرامته أعز عليه من أى شيء حتى لو كان ذلك الشيء هو حبه لك، فاتركيه يرحل حتى يرى ماذا سيفعل»..

فقالت عزة: «كيف أتركه وأنا أعلم أنه لا يملك شيئًا سوى بيت صغير، والمدة التى أمامه قصيرة، فقال محمد: «الله معكم ومعى ويرعاكم ويرعاني».. ثم خرج محمد ودموعه تنهمر على خده ومضى وهو لا يعلم ماذا يفعل؟ وكيف يتصرف فهو لا يملك سوى هذا البيت والذى لا يمكن أن يبيعه لأنه الذكرى الوحيدة التى بقيت له من أهله، وحتى لو تخلى عن هذه الذكرى وفكر أن يبيعه فلن يساوى أكثر من ٣٠٠٠ جنيه، فهو بيت صغير ومبنى بالطوب اللبن..

ومرت الأيام ونجح بتفوق كبير وحصل على البكالوريوس، ولكن هذا لم يعد يهمه.. فقرر أن يسافر إلى القاهرة لعله يجد عملًا عند أحد الأغنياء فيعطيه المبلغ مقابل أن يخدمه به..

ومرت الأيام ولم يجد ما يبحث عنه.. وفى ذات ليلة كان يسير فى شوارع القاهرة فإذا بسيارة فاخرة تقف إلى جواره وإذا بسيدة تنظر من السيارة وتطلب منه أن يقترب، وكانت الدموع فى عينيه.. فطلبت منه أن يركب معها فسألها إلى أين.. فقالت: لا تخف ولا تسأل وما عليك إلا أن تركب معي، وسوف تعلم فيما بعد.. وركب معها فسألته عن سبب شروده وتلك الدموع التى على خده فأخذ يقص عليها مأساته، وما أن انتهى حتى مدت يدها لكى تجفف له دموعه، ثم قالت له: «سوف أعطيك ما طلبه منك عمها ولكن فى مقابل خدمة بسيطة تؤديها لي».. فقال: «وما هي؟».. فقالت: «سوف تعرفها فيما بعد.. وظلت تقود السيارة حتى وصلت إلى مكان ما، وطلبت منه النزول فنزل وطلبت منه أن يتبعها، فتبعها حتى وصلت إلى الدور

الثالث ودخلت شقةً فدخل خلفها فأمرته بالجلوس، لكنه قبل أن يجلس سألها عن نوع الخدمة.. فطلبت منه الهدوء حتى تخبره بما تريد.. ثم سألته عما إذا كان يرغب فى مشروب ما، فرفض أن يتناول أى شيء قبل أن يعرف ما هى الخدمة البسيطة.. فتركته ودخلت حجرةً ثم بعد قليل دعته ليدخل إليها، فإذا بها حجرة نوم وإذا بها لا يسترها سوى القليل من ملابسها الداخلية، ففزع محمد وعلم ما تريد.. لكنه يفضل الموت على أن يفعل مثل هذا الشيء فخرج من الحجرة مسرعًا.. ولكن هيهات أن يخرج من باب الشقة الذى أحكمت غلقه فخرجت خلفه، وأخبرته أنها ما فعلت ذلك إلا لأن زوجها غنى جدًّا، وقد تزوج قبلها ٥مرات لكنه لم ينجب وأنه سوف يطلقها إذا لم تنجب له من يحمل اسمه ويرث ثروته، ثم كتبت له الشيك وأخبرته أنها لن تخبر أحدًا، ولن يعلم بذلك أحد وأن زوجها سافر لمدة شهر وأنهم سوف يقضون معًا أسبوعين فى هذه الشقة، ولن يحتاجوا إلى أى شيء من الخارج.. ولكن هيهات أن تغريه كل هذه الأشياء فهو يحمل كتاب اللّه فى صدره، فلم تجد من ذلك كله أى فائدة فاقتربت منه لعلها تحرك شهوته، لكنه يعلم كيف يتحكم فى شهوته فأخذ يتلو ما قاله نبى اللّه يوسف عندما دعته زوجة عزيز مصر.. فإذا بها تحتضنه وتزداد شهوتها اشتعالاً فتسقط به على الأرض وأخذت تقبله وظل يقاومها حتى تخلص منها فقام والدموع فى عينيه، فإذا بها تشعر بالإهانة.. أليست بامرأة؟ ألم تحرك فيه شهوته برغم كل ما فعلت معه؟ وإذا بها تصرخ فى وجهه: ما جنسك؟

فقال والدموع فى عينيه: «إنسان يخشى اللّه ويخاف عذابه».. فقالت: «ألا تحب خطيبتك التى قد تضيع منك لقلة النقود؟».. فقال: «تضيع هى خير من أن أضيع أنا، ثم إننى لو فعلت ذلك لكنت خائنًا لحبها الطاهر».

فلجأت إلى حيلة أخرى، فقالت له: «إذا لم تفعل ما أريد سوف أصرخ وأخبر الناس أنك دخلت حجرة نومى وحاولت اغتصابي».. فقال محمد: «فعلتها من قبلك فلم تفلح».. فجن جنون السيدة فجلست على الكرسى وأخذت تبكي، فهى لا تكاد تصدق نفسها.. هل يوجد شخص بهذا الإيمان فى هذا الزمان وبكل هذا الحب والإخلاص إلى من يحب؟ ولكنها عادت إلى جنونها فتلك هى فرصتها فأخذت تعيد ما حدث.. بل إنها تجردت من كل ملابسها، لكنه أغمض عينه فلا يرى شيئًا، ولا يريد أن يرى شيئًا، فهو مشغول بتلاوة القرآن والدموع تنهمر من عينيه ثم طلبت منه أن يعطيها ما ترغب ليلةً واحدةً فقط، فأجابها: «مرة واحدة مثل ألف مرة».. ثم أخذ يرجوها والدموع فى عينيه أن تتركه يرحل إلى حيث أتى.. أما هى فلقد نفد صبرها كما فشلت كل حيلها.. ففتحت باب شقتها وتركته يخرج، وأخذت تبكى فى جنون.. أما هو فخرج وملابسه تتصبب عرقًا.. وأخذ يمشى فى الشارع حتى وجد محطة أتوبيس فنام على مقعدها وإذا به يرى أباه وهو يبتسم.. فسأله عن سبب الابتسامة؟ فقال له: «لأنك أصبحت من السبعة الذين سوف يظلهم اللّه بظله يوم لا ظل إلا ظله».. ثم تركه ورحل، فاستيقظ وأخذ يبكى فهو فى أشد الحاجة إلى المال..

ولكنه لا يريد أن يغضب الله.. وبعد أن فاض به الكيل اتجه إلى مبنى الإذاعة والتليفزيون، وأخذ يصرخ فى الشارع: «أيها الناس.. أنا ابن بطل من أبطال حرب أكتوبر أطلب مساعدتكم.. فالاحتفال بأكتوبر ليس بالرقص والغناء ولكن بحل مشاكل أبناء الشهداء الذين ضحوا بأنفسهم من أجل أن تعيشوا».. ولكن هيهات أن يسمعه أحد فلقد أصمتت النقود آذانهم.. ولكنه ظل يقول هكذا حتى ضاع صوته.. فتملكه اليأس لأول مرة فى حياته، وأخذ يمشى حتى أنهكه المشى فنام تحت شجرة حتى الصباح، فاستيقظ ولديه فكرة جديدة.. لقد فكر بأن يتبرع بكليته لأحد المرضى بالفشل الكلوى فى مقابل مبلغ من المال.. وبالفعل ذهب إلى المستشفى وأخذ يطوف على المرضى بهذا المرض.. ولكن منهم من اتهمه بالجنون ومنهم من قال عنه نصاب، وظل هكذا حتى وصل إلى شاب فى العشرين من عمره مريض بهذا المرض وأهله أغنياء.. قبلوا عرضه بأى مبلغ يطلبه.. فقال لهم أنه لا يريد إلا المبلغ الذى يحتاج إليه.. وقص عليهم حكايته.. ولكن والد الشاب أخبره أنه سوف يعطيه ٢٥ ألف جنيه، وذلك عندما تثبت التحاليل أنه سليم وأنه يصلح وأنه سوف يعطيه ١٥ ألف قبل العملية و١٠ آلاف بعدها ومكث فى بيتهم ثلاثة وعشرين يومًا حتى انتهت كل التحاليل وأثبتت أنه لا مانع من إجراء العملية.. ولكن الطبيب لم يتخلى عن واجبه الإنساني، فأخبره بأنه قد يتعرض لمشاكل صحية بعد ذلك وأخبره بأنه قد يموت.. ولكن محمد لا يهمه كل ذلك فأخذ النقود المتفق عليها قبل العملية، وحدد الطبيب موعد الجراحة بعد

أسبوعين، وطلب منه محمد أن يتركوه ثلاثة أيام على أن تبقى النقود معهم حتى يعود إليهم.. فسمحوا له بذلك ولم يأخذوا منه النقود وقال له الرجل: «لقد لمست فى وجهك الصدق وليست نقودى عندى أهم من ابني.. وانصرف محمد ثم توجه إلى الشرقية لكى يودع عزة وأمها لعله يكون آخر لقاء بهم، وعندما وصل إليهم بعد غيبته تلك شعروا وكأنما شيئًا ثمينًا عاد إليهم ثم جلس يحدثهم عما حدث له خلال تلك الأيام وما لقيه من ألم وما تعرض له من عذاب.. إلا أنه أخبرهم بأن الله قد وهبه الفرج من عنده.. ولم يخبرهم عن ذلك الفرج مخافة أن يؤثروا على قراره وعاهدهم أنه سوف يتركهم الآن على أن يعود إليهم فى القريب العاجل.. فقالت له عزة: «لن أتركك ترحل ثانيةً بعد أن عدت إلي.. فمن المستحيل أن تكون هذه هى النهاية بيننا، وأنا أتوسل إليك أن تتم زواجنا دون علم عمي، وليفعل هو ما يشاء لأنى أعلم أن كل ما يهمه هو ما تركه أبى من مال وليس لكونه يريدنى زوجةً لابنه، وهو يعلم أنه وابنه أبغض الناس إلى قلبي»..

فأجابها محمد: «إنه لمن دواعى سرورى أن أتزوجك.. ولكنى أخشى أن يؤول ذلك الزواج على أنه ستار على فاحشة حدثت بيننا، وفى هذا طعن فى شرف رجل عاهدته أن أصون له عرضه فى حياته وبعد مماته»..

ثم تركهم بعد أن قال لعزة: «اعلمى أنك أحب الناس إلى قلبي، وأنه لن يحول بينى وبينك إلا الموت». ثم عاد إلى قريته ليودع ذكرياته بها وإن كانت كلها أليمةً إلا أنها تحمل فى طياتها طيف أبيه وأخته

الذى رحل وتركه وحيدًا يجابه هذه الصعاب.. وقبل أن تنقضى الأيام الثلاث عاد محمد إلى المستشفى مرةً أخرى ليجد الجميع فى انتظاره وقضى قبل الجراحة ليلةً فى قراءة القرآن والتضرع إلى الله عز وجل فى أن يطيل الله بعمره حتى يحقق أغلى وأحلى أمانيه، ثم طلب من الرجل أن يكتب باقى المبلغ بشيك باسم عزة أو أن يدعه فى البنك باسمها، وأعطاه رقم الحساب الذى أودع فيه الدفعة الأولى من المال باسمها أيضًا، وعاهده الرجل على ذلك.. إذ أنه لا يُعْقَل أن يفعل محمد كل هذا مع الرجل من أجل ابنه ويبخل هو عليه بهذا الطلب اليسير.. ثم دخلا الاثنين إلى غرفة الجراحة والتى مكثا بها أكثر من ست ساعات حتى انتهت تلك العملية بنجاح.. وخرج الاثنان معًا، ووُضِعا فى غرفة واحدة، ظل محمد يردد اسم عزة فى غيبوبته حتى أنه عندما استفاق طلب منهم أن يطلبوها فى التليفون ليحدثها، ولكن الطبيب أجابه بأن حالته لا تسمح له بذلك الآن، ولكنه أصر على ذلك وأخبر الطبيب بأن حالته سوف تتحسن بعد أن يجرى هذا الاتصال.. وبالفعل حدثها والكلمات تتلعثم على شفتيه فاستشعرت هى بأن أمرًا ما قد حدث، ثم أخبرها بعنوان المستشفى التى هو بها وطلب منها الحضور.. وما إن أنهى معها حديثه حتى سقطت منها سماعة الهاتف ودخلت إلى أمها مسرعةً تخبرها بأن محمدًا بالمستشفى وأنه يطلب منها أن تذهب إليه، ولم يتردد الاثنان فى تلبية ذلك الطلب.. وما أن وصلتا إلى المستشفى ودخلتا غرفته حتى ألقت بنفسها بجوار سريره طالبةً منه أن يخبرها بما حدث.. وأخذت

تلح فى طلبها هذا إلى أن قال لها: «سوف أخبرك بكل شيء»، وأخذ يسترسل فى الحديث وما إن انتهى من حديثه حتى صاحت فى وجهه قائلةً: «أنت أكيد مجنون.. كيف تفعل فى نفسك هذا؟».. فأجابها بأنه حقًا مجنون بحبها.. وأن ما فعله بنفسه لا يساوى لحظةً واحدةً يُحْرَم فيها منها، وأن كل ذلك لا يُعَد شيئًا مما قدمه له أبوها.. ثم بعد أن هدأت ثورتها جلست تتحدث معه وما تركهم يرحلون إلا بعد أن عادت إليهم البسمة وبعد أن اطمأنوا أنه فى أحسن حال.. وعرض عليهم والد الشاب الذى أخذ كلية محمد أن يقيما معه فى بيته مع زوجته حتى تنتهى فترة علاج محمد بالمستشفى، إلا أن الحاجة زينب لا تستطيع أن تترك بيتها يومًا واحدًا.. أما عزة ففضلت البقاء حتى تكون قريبةً من محمد.. وما هى إلا أيام قلائل حتى تماثل محمد إلى الشفاء وخرج هو وعزة سويًّا من المستشفى بعد أن ودعا ذلك الفتى وتمنيا له تمام العافية.

# (موعد مع القدر)

ثم عادا سويًّا إلى بيتهم بالشرقية.. وبعد أيام من النقاهة قرروا أن يتصلوا بعم عزة وأن يخبروه بأن كل شيء أصبح جاهزًا ومعدًّا.. وبالفعل أخبروه بذلك وحدد لهم موعدًا لحضوره إلا أنه لم يلتزم معهم بميعاد وتكرر ذلك أكثر من مرة حتى أنهم أخبروه بأنهم قد حددوا يومًا لشراء الشبكة، وأنه إذا أراد المشاركة فليحضر إليهم فى ذلك الموعد.. ولكنه لم يأبه لذلك.. فأخبرت عزة محمد بأن عمها لن يحضر لأن ما كان يبغيه هو أن يضع العقبات أمام زواجهم حتى لا يتم.. وأنه بزوال تلك العقبات لم يعد لديه ما يفعله سوى أنه يتظاهر بانشغاله عنه.. ولذا قررت عزة عدم تأخير الموعد.. وبالفعل ذهبوا فى ذلك اليوم المحدد إلى شارع الصاغة فى الزقازيق، وأخذوا يطوفون بمحلات الصاغة يتخيرون منها أجود ما فيها حتى انتهوا من اختيارهم، فقرر محمد أن يقوم بشراء المشروبات الباردة ليوزعها على الحاضرين بمحل الصاغة احتفاءً منه بهذه المناسبة..

وكأن القدر أراد أن يتم ما بدأه مع هذه الصبى منذ ميلاده.. فما أن خطت قدماه عدة خطوات خارج المحل إلا وقد صدمته سيارة طائشة فسقط على إثرها غارقًا فى دمائه وخرج الجميع ليترقبوا ما حدث، فإذا بمحمد ملقًى على الأرض غارقًا فى بحر من الدماء.. فهرولت إليه عزة غير مصدقة ما حدث وهى تصرخ من هول المفاجأة.. وما أن وصلت إليه حتى انكبت عليه واحتضنته على صدرها وهى تصرخ فى الحاضرين أن يحضروا سيارة الإسعاف فأجابها محمد بأنه ليس بحاجة إلى سيارة الإسعاف بقدر حاجته إلى أن يستريح على صدرها فى اللحظات المتبقية القليلة.. فأجابته بأنه لا يمكن أن يموت ولا يمكن أن تكون هذه هى نهايته.. ولا يمكن لهذا الحب أن ينتهى هكذا.. لا يمكن أن يكون قد حُكِم على هذا الحب بالموت..

فأجابها بأنه أبدًا لن يموت الحب.. فالحب باق فى كل شيء.. وأنه لا حياة بدونه.. فأيقنت عزة حينها أنه مفارقها لا محالة، وأنه لا حيلة لها فى قضاء الله وقدره إلا أنها قد اهتدت إلى إن تطلب منه الزواج فى هذه اللحظات الباقية من حياته لعلها تنعم معه فى الآخرة بما لم تنعم به فى الدنيا.. فقالت له: «زوجتك نفسى على سنة الله ورسوله والله ثم جميع الحضور الذين حولنا على ما أقول شهيد».. فنظر إليها وكأنه يجيبها بنظرته تلك أن هذا هو ما يتمناه، ولكنه يخشى أن يكون هذا ظلمًا لها ثم نظر إلى أمها والتى يملأ وجهها الدموع ورأى فى وجهها إجابةً لما يجول فى خاطره.. فقد رأى فى عينيها الرضى عما عرضته عزة عليه.. فقطعت عزة تلك النظرات المتبادلة بين محمد

وأمها بقولها: «زوجتك نفسى على سنة الله ورسوله».. فأجابها: «وأنا قبلت الزواج منك».. فقبلته قبلةً طالت حتى أنها وكأنها قبلة الحياة حتى استشعرت أنه قد فارق الحياة، فوضعته على فخذها بحنان وهى تقول: «حتى وإن كانت تلك هى النهاية لما كان بيننا من حب.. وحتى وإن كان هذا هو حكم القدر علينا فإنى أطمع أن يجمع الله بيننا فى الآخرة؛ إذ أن حبك فى قلبى لن يموت أبدًا..

**نموت ولا يموت الحب**